

دراسة في



ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار



مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٢ - البحث ٢

جذور ظاهرة التكفير في الأديان الكتابية دراسة عقديّة وتاريخية

د. سعيد محمد حسين معلوي

الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة وهادياً
للعالمين، وبعد:

فإن ظاهرة التكفير هي أكثر شيوعاً عند أهل الكتاب من غيرهم، وهي سيمّة ظاهرة في أجديات الديانتين اليهودية، والنصرانية على حد سواء. ومن هنا كان طرح هذا الموضوع المهم، وبالأخص في هذا العصر الذي وُصِفَ فيه المسلمون بالإرهاب والغلو في التكفير، وكان من حمل لواء هذه الفرية هي الجماعات النصرانية المتصهينة، والتي لها نفوذها الكبير في أماكن صنع القرار في بعض الدول الغربية، كما أن لها سيطرتها شبه الكاملة على وسائل الإعلام في تلك الدول، فبيان أن ظاهرة الغلو في التكفير ليست خاصة ببعض من ينتسبون إلى الدين الإسلامي؛ بل إن غيرهم من مخالفيهم لهم النصيب الأوفى من هذه الظاهرة، له من الأهمية مكان في هذا العصر.

وهذا البحث يختص ببيان ظاهرة التكفير عند اليهود والنصارى من جانبين: جانب عقدي، وجانب تاريخي. فأما من الجانب العقدي: فقد ذكر الباحث ما ورد في كتبهم من نصوص، وما ورد على لسان علمائهم من أقوال تفيد تغلغل ظاهرة التكفير عندهم. وأما من الجانب التاريخي: فقد سعى الباحث إلى أن يشمل بحثه المدة الزمنية من ظهور هاتين الديانتين إلى وقتنا هذا، بحسب توفر المصادر والمراجع، وبما يتلاءم مع شروط البحث التي وضعها القائمون على المؤتمر وفقهم الله. أيضاً - وبحسب الاستطاعة - كان الاعتماد على مصادر ومراجع من تأليف أبناء هاتين الملتين؛ ترجمت إلى اللغة العربية في السنوات الأخيرة، ولباحثين عرب من يهود ونصارى. والله أسأل التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

التمهيد

المطلب الأول

المراد بالكفر لغة واصطلاحاً

حقيقة الكفر:

الكفر في اللغة: معنى الكفر في اللغة يدور على الستر والتغطية، ومن ذلك سمي الكافر كافراً لأنه ستر نعم الله عز وجل^(١).
الكفر في الاصطلاح: نقيض الإيمان وهذا عند كل الطوائف^(٢). قال ابن تيمية: (الكفر عدم الإيمان، باتفاق المسلمين، سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم. وقرر أن هذا قول أهل السنة والجماعة، وسائر الطوائف من أهل الكلام ومن غيرهم)^(٣). قال - رحمه الله -: (الكفر عدم الإيمان بالله ورسوله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب؛ بل شك وريب. أو إعراض عن هذا كله حسداً، أو كبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة)^(٤).

(١) انظر: لسان العرب: ١٤٤/٥. تاج العروس: ٤٥٠/٧.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون: ١٢٥١/٢.

(٣) مجموع الفتاوى: ٨٦/٢٠.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣٣٥/١٢.

المطلب الثاني المراد بالأديان الكتابية

المقصود بالأديان الكتابية: اليهودية، والنصرانية، وسموا بهذا الاسم؛ لأن كلاً من هاتين الديانتين لها كتاب منزل: فاليهودية أنزل الله عليها التوراة، وأنزل - تعالى - على النصرانية الإنجيل^(١). قال الراغب: (وحيثما ذكر الله - تعالى - أهل الكتاب، فإنما أراد بالكتاب: التوراة، والإنجيل، أو إياهما جميعاً)^(٢). والمراد باليهودية: الديانة التي تتعبد بالتوراة، ويسمى اتباعها: يهود، واليهود: هم الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام، وقد وردت تسميتهم في القرآن بـ"اليهود" و"قوم موسى" و"بني إسرائيل" نسبة إلى نبي الله يعقوب عليه السلام. والملاحظ أن تسميتهم باليهود تأتي في القرآن في مواطن الدم، وهذا يدل على أنهم تلقبوا بهذا اللقب بعد أن فسد حالهم، وانحرفوا عن دين الله؛ في حين أن تسميتهم "ببني إسرائيل" كان في ابتداء نشأتهم وهم مسلمون؛ فلما حرفوا وبدلوا أطلق الله عليهم: اليهود^(٣). وأما النصرانية: فهي الديانة التي يتعبد بها النصارى، وقد ورد تسميتهم في القرآن بالنصارى؛ الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح عليه السلام. وتسمى النصرانية بالمسيحية، وهذه التسمية فيها نظر؛ وذلك أنها لم ترد في القرآن الكريم، وهي تسمية حادثة لا

(١) ينظر مادة "أهل الكتاب" في التعريفات، للجرجاني، ص: ٩٨، ومعجم لغة الفقهاء: ص: ٩٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص: ٧٠١.

(٣) ينظر الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل، للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: ٥٧٥/٣-٥٩٠، ومعجم المناهي اللفظية، للشيخ بكر أبو زيد: ص: ٩٣، ودراسات في الأديان:

اليهودية والنصرانية، أ.د. سعود بن عبدالعزيز الخلف: ص: ٣٦.

وجود لها في التاريخ، كما أن النصارى بدلوا دين المسيح وحرفوه^(١).

ومن المعلوم ضرورة أن التوراة والإنجيل قد حُرِّفاً وبدلاً، كما بينه تعالى في محكم التنزيل، وكما ثبت في صحاح الأحاديث، يقول القرآن عن تحريف اليهود: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣].

ويقول عن تحريف النصارى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ١٧٥]، ولما سأله - سبحانه - وهو أعلم: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]، فأجاب عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]. كما أن الله - تعالى - وصف اليهود بأنهم مغضوب عليهم، ووصف النصارى بالضلال، فقال تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ١٧]. وعن عدي بن حاتم^(٢) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلالا»^(٣). فد (الأمّة الغضبيّة هم اليهود بنص القرآن، وأمّة الضلال هم النصارى المثلثة عبّاد

(١) ينظر الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل: ٦١٦/٣-٦٢٠، ومعجم المناهي

اللفظية: ص ٩٣، ودراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية: ص ١٢١.

(٢) عدي بن حاتم بن عبد الله الطائي، وفد على النبي ﷺ في وسط سنة سبع من الهجرة. له أحاديث عدة.

نزل الكوفة مدة، وقاتل مع علي ﷺ في الجمل وصفين هو وقومه، عمّر طويلاً، وتوفي سنة (٦٧هـ).

[الإصابة: ١٢٢/٧].

(٣) رواه الترمذي: كتاب التفسير، رقم (٢٩٥٤)، ص ٦٦١، وصححه الألباني في الموضع نفسه.

الصلبان)^(١).

والقارىء للتوراة والإنجيل اللذين في أيدي الناس اليوم، يجد في مواطن عديدة منها نقيض ما جاء به الأنبياء والرسل من الإيمان والتوحيد والعمل الصالح، والدعوة إلى محاسن الأخلاق والفضائل، فالتوراة وقع فيها التحريف بعد وفاة موسى عليه السلام، ثم زاد تحريفها عندما كتبت بأيدي كهنة رهبان اليهود وعلى رأسهم عزرا^(٢)، بعد السبي البابلي عام (٥٩٩ق.م) بأكثر من قرن ونصف، وتحديداً عام (٤٤٤ق.م)^(٣). يقول جارودي^(٤): (ليس هناك عالم من علماء التفسير لا يقر أن أقدم نصوص التوراة قد ألفت على الأكثر في عهد سليمان- في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد- وهي عبارة عن تجميع لروايات شفوية شتى، فإذا ما التزمنا بمعايير الموضوعية التاريخية؛ كان علينا الإقرار بأن هذه الروايات التي تتحدث عن ملاحم مرت عليها قرون، ليست أكثر

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم: ٤٨٤/١.

(٢) هو كاهن ابن سرايا، لقب بالكاتب لكتابته التوراة؛ ولأنه كان دارساً مجتهداً، ومفسراً عميقاً لها. كان موظفاً في بلاط امبراطور الفرس، ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية، التي كانت تقيم في ما بين النهرين منذ أيام السبي. وقد استطاع عزرا أن يعيد اليهود إلى القدس بعد موافقة الامبراطور الفارسي ما بين سنة (٤٥٧-٣٩٨ ق.م)، يعتبره اليهود زعيماً لهم بعد موسى عليه السلام الذي أخرجهم من مصر. لينظر قاموس الكتاب المقدس: ص ٦٢١.

(٣) ينظر شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: ص ٣١، وإفحام اليهود، السموأل بن يحيى المغربي "الحبر شموائل بن يهوذا بن أبوان" قبل إسلامه: ص ١٤٠، وقصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٦٦/٢، وما بعدها. والتلمود، آ.كوهن: ص ١٦-١٧.

(٤) روجيه جان شارل جارودي، من مواليد مارسيليا بفرنسا، في ١٧/٧/١٩١٣م فيلسوف فرنسي معاصر، أشهر إسلامه في: ١١/٩/١٤٠٢هـ الموافق: ٢/٧/١٩٨٢م. تبنى بعد إسلامه فلسفة تليفيقية ذات صبغة شمولية تشمل الأديان الإبراهيمية الثلاثة، والرجل ينكر أي دور تشريعي للسنة النبوية، ويؤول العبادات الشرعية تأويلاً باطنياً، والحلال والحرام أمور نسبية تختلف بحسب الظروف، والحدود في نظر جارودي نوع من الهمجية ينبغي منعه، فضلاً عن إنكاره للقدر وتأويله للبعث.. وهكذا لينظر: فكر جارودي بين المادية والإسلام، عادل التل. ومجلة الأمة، العدد (٢٩) جمادى الأولى ١٤٠٣هـ، فبراير ١٩٨٣م: ص ٦٥-١٧٣.

تاريخية- بالمعنى الدقيق للكلمة- من الإلياذة^(١).

فأدخل فيها هؤلاء الكهنة ما ليس من عند الله تعالى من تراث الأمم الوثنية السابقة؛ حتى إنَّ شريعة موسى عليه السلام لم يبق منها إلا القليل، وما عدا ذلك فقد اندثر وضاع، ولم يبق له أثر^(٢).

ولهذا نجد في التوراة المحرفة التي بأيدي اليهود سوء الأدب مع الباري سبحانه، ووصفه تعالى عن ذلك بصفات النقص والخداع والندم، بل تارة بالجهل والنسيان، وعدم العلم، ومصارعة البشر، ولطم الوجه، إلى غير ذلك من القبائح. أما ما نسبته التوراة المحرفة إلى أنبياء الله فكثير: من الزنا، والكذب والاحتيال، وطلب الدنيا، وكره ما أنزل الله ومختلف كبائر الذنوب. فضلاً عن الاستهزاء بذواتهم واتخاذهم مجالاً للسخرية^(٣).

أما الإنجيل الذي في أيدي النصارى اليوم، فليس ما أوحاه الله إلى عيسى عليه السلام؛ بل ضاع منهم، والتحريف في الإنجيل الموجود اليوم ظاهر وجلي. وكانت كتابته بعد رفع المسيح عليه السلام بمئات السنين، والأخبار التي فيه

(١) دراسة للصهيونية السياسية، روجيه جارودي: ص ٩٤-٩٥. وينظر الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية لجارودي: ص ٤٣. والإلياذة: ملحمة شعرية أسطورية من الأدب الإغريقي، نسبة إلى مدينة إيون اليونانية عاصمة بلاد الطرواد، وتحكي هذه الملحمة حروب طروادة، وما كان فيها من أحداث. والإلياذة من تأليف رجل يدعى: هوميروس، يقال إنه كان أعمى، ومن سكان آسيا الصغرى (والمراد بها حالياً: أجزاء من اليونان وتركيا وبعض الدول المجاورة لها)، ينظر: مقدمة مترجم الإلياذة: سليمان البستاني: ٩/١-٣٦.

(٢) ينظر قصة الحضارة: ٢/٣٧١، وفجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، الفصل السابع عشر: مصادر إرثنا الخلفي: ص ٣٦١-٤١٤، والأسطورة والحقيقة في التوراة، زنون كوسيدوفسكي: ص ٣٧٢، وما بعدها، والتوراة كتاب مقدس أم جمع أساطير، ليو تاكسل: ص ٥٢٤-٥٢٥، والمدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، د. محمد علي البار: ص ١٢٨ وما بعدها، ١٤٣-١٥٥.

(٣) ينظر الحسام الممدود في الرد على اليهود، عبدالحق الإسلامي المغربي (من أحبار اليهود الذين أسلموا): ص ١٧٥-١٨٧، وشفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، والمدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ص ١٥٥-١٥٨.

فيها كذب وافتراء على الله ونبيه عيسى عليه السلام: كأخبار صلب المسيح، وقد بين القرآن الكريم أن ذلك لم يقع بيقين: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧]. وعقيدة التثليث: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقولهم إن الله اتخذ ولداً، وهو ما نفاه القرآن عنه تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. إلى غير ذلك من التحريف والتبديل الموجود في الإنجيل المتداول بين أيدي الناس اليوم.

المبحث الأول

جذور ظاهرة التكفير عند اليهود

المطلب الأول

عقيدة الشعب المختار وأثرها في ظاهرة التكفير عند اليهود

يزعم اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وما سواهم فهم أميون يجوز أن يفعلوا بهم ما شاؤوا، ويجوز خداعهم، واستباحة أموالهم وأعراضهم؛ بل وقتلهم متى قدروا عليهم، وأن بقية الأمم خدم لهم مسخرون لأجلهم.

وَزَعَمُ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ مُصْطَفَوْنَ لجنسهم من دون الناس، وأنهم أحياء الله وحده دون سائر الخلق، ذكره الله عنهم في القرآن الكريم، فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ١٨]. وحكم اليهود بالجنة لمن كان منهم - وتبعهم النصارى في ذلك - وحرّموا الجنة على غيرهم، يقول الله - جل وعلا - : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]، وفي ضوء هذه الخصوصية لليهود؛ فإنهم غير مؤاخذين ولا محاسبين فيما يفعلونه في الأميين من استباحة أموالهم، وسرقتهم، قال - تعالى - حاكياً عنهم: ﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنُ إِن تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنُ إِن تَأْمَنَهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]، والمراد

بأهل الكتاب هنا: هم اليهود كما ذكره أهل التفسير^(١).

ودلالة اصطفاء الله لليهود، هي فيما نسب إليه - تعالى - في التوراة في قوله: (وَقَدْ أَفْرَزْتُمْ مِنْ بَيْنِ الشُّعُوبِ لِتَكُونُوا حَاصَّتِي)^(٢). وهذا الاصطفاء لبني إسرائيل هو ما خصهم الله به من إرسال الأنبياء إليهم، وإنزال الكتب عليهم، كما بينه - تعالى - في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]، لكنهم لما خالفوا وبدلوا، وخانوا الأمانة التي أوثمنوا عليها، زال عنهم هذا الاصطفاء، ووصفهم الله - تعالى - بالكذب والظلم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِاللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، ولعنهم الله على لسان أنبيائه عليهم السلام، فقال - جل جلاله -: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ، وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]، وخص الله - عز وجل - أمة محمد ﷺ - أمة الإجابة - من عرب وعجم، ومن سود وبيض بالاصطفاء، فقال - سبحانه -: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وربط هذا الاصطفاء: بالإيمان به سبحانه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٦٠/٢.

(٢) التوراة، سفر اللاويين: الإصحاح ٢٠: ٢٦.

أيضاً فإن الذين اصطفاهم الله - تعالى - هم بنو إسرائيل، وليس اليهود، وقد سبق أن ذكرنا أن تسميتهم باليهود تأتي في القرآن في مواطن الذم، وهذا يدل على أنهم تلقبوا بهذا اللقب بعد أن فسد حالهم، وانحرفوا عن دين الله، في حين أن تسميتهم "بني إسرائيل" كان في ابتداء نشأتهم وهم مسلمون؛ فلما حَرَّفُوا وبدلوا أطلق الله عليهم: اليهود. فاليهود قد انفصلوا بكفرهم عن بني إسرائيل زمن بني إسرائيل، كانفصال إبراهيم الخليل عليه السلام عن أبيه آزر، وكما في قصة نوح عليه السلام مع ابنه، والكفر يقطع الموالاة بين المسلمين والكافرين؛ ولهذا فإن الفضائل التي كانت لبني إسرائيل ليس لليهود منها شيء؛ فإطلاق اسم بني إسرائيل على اليهود يكسبهم فضائل، ويحجب عنهم رذائل، فيزول التمييز بين بني إسرائيل الذين اصطفاهم الله، وبين اليهود المغضوب عليهم، الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة^(١).

واليهود الذين حَرَّفُوا وبدلوا قد ظنوا أن اصطفاء الله لهم، هو اصطفاء جنس لا اصطفاء عمل، وأن الله - تعالى - لهم وحدهم، وإلاهم من دون سائر العالمين، كما جاء في التوراة: (وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهًا)^(٢). وفيها - أيضاً - : (لَأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ. إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لِتَكُونَ شَعْبًا أَحْصَى مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ)^(٣).

كما أن التوراة تصف اليهود بالشرك والكفر والخروج على شريعة الرب، مما يؤكد أن هذا الاصطفاء بزعمهم كان لجنسهم لا لإيمانهم: (وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ، وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ

(١) ينظر الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل: ٣/٥٧٤-٦٢٤، ومعجم المناهي اللفظية: ص ٩٣.

(٢) التوراة، سفر الخروج: الإصحاح ٦، الفقرة (٧).

(٣) التوراة، سفر التثنية، الإصحاح ٧: (٦-٧).

أَبَائِهِمُ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا، وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. تَرَكَوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبُغْلَ وَعَعَشْتَارُوثَ^(١).

فاليهود بزعمهم هم الذين اصطفاهم الله من دون سائر الخلق، بل هم (جزء من الله)^(٢) كما يفترون؛ فمن أجلهم يقاتل، ولأجلهم يعاقب، ويندم على ما يفعله بهم، ويعتذر إن أخطأ في حقهم، تعالى الله وتزه عن افتراء اليهود وإلحادهم في حقه جل وعلا. ويذكرون في التوراة ندم الله - تعالى - على ما فعله بني إسرائيل - تعالى - عن قولهم وبهتانهم، حيث يخاطب موسى عليه السلام الله - تعالى - فيقول: (ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك)^(٣)، فيجيبه الرب: (الرب ندم على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه)^(٤). وجاء في التلمود: (أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أميَّ إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية)^(٥). وفيه - أيضاً - : (أنه إذا ضرب أميَّ إسرائيلياً فالأمي يستحق الموت، وأنه لو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب)^(٦). وفي التلمود - أيضاً - أن (الشعب المختار - أي: اليهود - فقط يستحق الحياة الأبدية)^(٧)، وفيه: (تتميز أرواح اليهود عن باقي

(١) التوراة، سفر القضاة: الإصحاح ٢: (١١-١٣).

(٢) الكنز المرصود في فضائح التلمود، أوجست روهلنج: ص ١٨٧.

(٣) الكتاب المقدس: سفر الخروج: الإصحاح ٣٢: ١٢.

(٤) الكتاب المقدس: سفر الخروج: الإصحاح ٣٢: ١٤.

(٥) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ١٨٧.

(٦) المصدر السابق: ص ١٨٧.

(٧) المصدر السابق: ص ١٨٩.

الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من والده، ومن ثم كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح؛ لأن الأرواح غير اليهودية هي أرواح شيطانية، وشبيهة بأرواح الحيوانات^(١).

واليهودية- في نظر اليهود- تساوي الإنسانية؛ ولا يكون المرء إنساناً إلا إذا كان يهودياً، أما غيره من البشر فليس من الإنسانية في شيء^(٢).

لقد تحولت عقيدة الشعب المختار عند اليهود إلى صنم يعبد من دون الله، وأصبحت هذه العقيدة ركيزة أساسية من ركائز الصهيونية في العصر الحديث، يقول اليهودي مارتن بوبر^(٣): (لقد كنا نأمل في إنقاذ النزعة القومية اليهودية من الخطأ المتمثل في تحويل الشعب إلى صنم معبود؛ ولكننا فشلنا)^(٤). بل وصل الأمر بهم إلى القول بأنه (مادامت الدولة لغير اليهود؛ فإن الله حامل الذكر عن الأمم، وأنه مطعون في ملكه، مشكوك في قدرته)^(٥).

وقد نتج عن عقيدة الشعب المختار عند اليهود: أن استثنوا أنفسهم من الوقوع في الكفر مما بلغ الاختلاف بينهم مبلغه. فاليهود مع أنهم فرق شتى، ومذاهب متباينة في اعتقاداتها؛ ومع وجود اختلافات جوهرية وعميقة تمتد إلى العقائد والأصول بين فرق اليهود، فإن مفهوم الاختلاف والتباين في العقيدة في اليهودية لا يعطي الدلالة نفسها التي تحملها في الإسلام أو النصرانية. (فلا

(١) المصدر السابق: ص ١٧٨.

(٢) ينظر محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي: ص ٤٠.

(٣) مارتن بوبر (١٨٧٨-١٩٦٥م) مفكر يهودي صهيوني، ومن أبرز مفسري العهد القديم، انضم إلى الحركة الصهيونية؛ ثم اعتزل الحياة العامة، وتفرغ للبحث في فلسفة الدين، وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٨م، واستقر فيها حتى وفاته. لنقلاً عن حاشية مترجم كتاب روجيه جارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية: ص ٢٩، وينظر: الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحك: ص ٥٦-٥٧.

(٤) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية: ص ٣٢، وينظر: الكتاب نفسه: ص ٣٢-٣٦.

(٥) إفحام اليهود: ص ١٢٨.

يمكن - على سبيل المثال - تصوّر مسلم يرفض النطق بالشهادتين ويُعترف به مسلماً، أو مسيحي يرفض الإيمان بحادثة الصلب والقيام ويُعترف به مسيحياً. أما داخل اليهودية، فيمكن ألا يؤمن اليهودي بالإله ولا بالغيب ولا باليوم الآخر ويُعتبر مع هذا يهودياً حتى من منظور اليهودية نفسها. وهذا يرجع إلى طبيعة اليهودية بوصفها تركيباً يضم عناصر عديدة متناقضة متعايشة دون تمازج أو انصهار. ولذا؛ تجد كل فرقة جديدة داخل هذا التركيب من الآراء والحجج والسوابق ما يضي شرعية على موقفها مهما يكن تطرفه^(١).

وغالبية اليهود اليوم لا يؤمنون بإله على الإطلاق، فهم يتجاوزون عقيدتهم اليهودية لا إلى عقيدة أخرى؛ بل إلى ما يعرف بالعبادة القلبية، أو العبادة العقلية المجردة، ولا يمارسون أية طقوس، ولكنهم مع هذا يسمون أنفسهم يهوداً؛ لأنهم ولدوا لأم يهودية^(٢)، بل إن بعض فرق اليهود يعتقدون أنه لا توجد سوى الحياة الدنيا، وينكرون كل ما يتعلق بالروح واليوم الآخر، وينكرون والبعث والثواب العقاب. وبرغم رؤيتهم المادية الإلحادية هذه، فإنهم كانوا يُعتبرون يهوداً؛ بل كانوا يشكلون أهم شريحة في النخبة الدينية القائدة، وقد اعترفت بيهوديتهم سائر فرق اليهود^(٣)، (فالشريعة اليهودية - على أية حال - تُعرّف اليهودي بأنه من يؤمن بالعقيدة اليهودية أو يولد لأم يهودية)^(٤). فمتى تحقق أحد هذين الشرطين فهو يهودي، حتى ولو كان غارقاً في الإلحاد.

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د.عبد الوهاب المسيري: ٣١٧/٥.

(٢) ينظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: ٣١٨/٥.

(٣) ينظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: ٢٢٤/٥، والفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، د.حسن ظاظا: ص ٢٠١-٢٧٣.

(٤) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د.عبد الوهاب المسيري: ٣١٧/٥.

المطلب الثاني

ظاهرة التكفير في شريعة التلمود

التلمود:

التلمود: لفظة عبرية تعني التعاليم أو الشريعة الشفوية، وهو من كتب اليهود المقدسة، ويفضلونه على التوراة، ويحيطونه بسرية تامة، وهو عبارة عن شروح للتوراة لحاخاماتهم في كل عصر ومن كل مصر جمعت بناء على التعاليم الشفوية التي ظلت متوارثة على مدى ستة عشر قرناً، منذ وفاة موسى عليه السلام في القرن (٤ ا.ق.م)، إلى أن بدأت كتابة التلمود في القرن الثاني الميلادي، وأول تدوين له كان سنة (١٨٩م) على الأرجح، ولا تزال الشروح تضاف إلى التلمود حتى مطلع العصر الحديث، حتى طبع مؤخراً بلغتين: إنجليزية، وعبرية في خمسة وثلاثين مجلداً، ووزع على أحبار اليهود فقط^(١). والتلمود يحتوي على آراء متناقضة من أمثال وحكم وأقضية. وهو يبيح الربا، وتقديم الأطفال قرباناً للإله، كما يبيح الغش، ويعلم أتباعه كراهية الأجانب، والسعي إلى سرقتهم وأذيتهم^(٢)، ولا يبعد عن الحقيقة القول بأن (بعض أقوال التلمود مغال فيه، وبعضها كراهية، وبعضها الآخر كفر؛ ولكنها تشكل في صورتها البسيطة أثراً غير عادي للجهد الإنساني، وللعقل الإنساني، وللحماقة الإنسانية)^(٣).

(١) ينظر: التلمود، آ.كوهن: ص١٥-٤٥، وكنيس في الكنيسة، ميشيل منير: ص٧، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك: ص٧٤، وما بعدها، وإسرائيل والتلمود، إبراهيم خليل أحمد: ص١٢-١٣، والمسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د.محمد علي البار: ص٢٣-٨٤.

(٢) ينظر المسيحية المتهودة، عيسى اليازجي: ص٢٥-٢٦.

(٣) المسيحية المتهودة: ص٢٦.

وتصل أهمية التلمود عند اليهود- لدرجة زعمهم (أن الله في الليل يدرس التلمود)^(١)، تعالى الله جل جلاله عما يقوله اليهود علواً كبيراً. وشريعة التلمود هي الشريعة المقدمة، والتي ينبغي أن تسود على كل الشرائع^(٢)، فهو المصدر الرئيس لكل الممارسات اليهودية^(٣)، ونص التلمود، والمعنى الحرفي له ملزم بخلاف نص التوراة فهو غير ملزم، والتلمود أفضل من كلام الأنبياء بزعم اليهود، ومن احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت، أما من احتقر أقوال التوراة فلا يستحق عقاباً، وأن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها، ولا تغييرها ولو بأمر الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٤).

ومما جاء في التلمود^(٥):

- تنبثق نفوس اليهود من جوهر الله مباشرة، كما ينبثق جوهر الولد من أبيه.
- نفوس اليهود أكثر قبولاً، وأعظم شأنًا عند الله من نفوس سائر شعوب الأرض؛ لأن هؤلاء تشتق نفوسهم من الشيطان، وهي مشابهة لنفوس الحيوانات والجماد.
- اليهود أحب إلى الله من الملائكة.
- من يصفع اليهودي كمن يصفع الله.
- إذا ضرب أميَّ إسرائيليا يستحق الموت وليس العكس.

(1) همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد: ص ٣١.
(2) ينظر محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي: ص ٢٣٦.
(3) ينظر الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك: ص ٧٤.
(4) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود، أوجست روهلنج: ص ١٥٩-١٦٢. الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحاك: ص ٧٩.
(5) هذه النصوص منقولة بتصريف من كتاب: الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ١٨٧-١٩٢. ومن كتاب همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد: ص ٥٠. وللمزيد ينظر: التلمود عرض شامل، آكوهين: ص ١١٣-١٢٢، وكتاب: فضح التلمود، الأب: آي. بي. برانايتس.

- ولو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش.
- الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو الفرق بين اليهود وبين باقي الأمميين.
- إن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان.
- إن الكلب أفضل من الأجنبي؛ لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجنبي أو يعطيه لحماً؛ بل يعطيه للكلب.
- الشعب اليهودي فقط هو الذي يستحق فقط الحياة الأبدية، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير.
- إن الخارجين عن دين اليهود خنازير نجسة، وإذا كان الأجنبي غير اليهودي قد خلق على هيئة الإنسان فما ذلك إلا ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلق لأجلهم. ويرى الحاخام اليهودي ابن ميمون^(١) أن هناك بشر غير قادرين على عبادة الله، إنهم نوع البشر الذين ليس لديهم أي معتقد... فهم مثل حيوانات غير ناطقة، وليسوا في مستوى البشر؛ إذ إنهم من بين الكائنات الحية صنف أدنى من البشر، وأعلى من القروود^(٢).

(١) أبو عمران موسى بن ميمون: طبيب وفيلسوف وحاخام يهودي، ولد في قرطبة سنة (٥٢٩هـ) ترك قرطبة بعد أن استولى عليها الموحدون، وهاجر إلى فاس متظاهراً بالإسلام أو مكرهاً عليه، ثم انتقل إلى فلسطين فمصر فعاد إلى يهوديته واستقر بالفسطاط قرب القاهرة إلى أن مات سنة (٦٠١هـ). عمل طبيباً لصلاح الدين وابنه من بعده، وانتخب رئيساً لمجلس الحاخاميين في مصر، وهذا المجلس هو محكمة الملة اليهودية. ومما يذكر عنه أنه بعث إلى أتباعه اليهود في أنحاء مصر واليمن رسائل يدعوهم فيها للاستيطان في فلسطين بعد هزيمة الصليبيين على يد صلاح الدين. ينظر معجم الفلاسفة: ص ٣٤.

(٢) ينظر دلالة الحائرين، لموسى بن ميمون: ٧١٥/٣.

المطلب الثالث

تكفير اليهود للأنبياء والرسل

نسب اليهود إلى موسى وهارون - عليهما السلام - أنهما لم يؤمنا بالله عز وجل، تعالى الله وأنبيأؤه عن قولهم، فقد ورد في التوراة العبرية، ما ترجمته: (وقال الله لموسى وهارون: كما أنكما لم تؤمنا بي، ولم تقدساني فيما بين بني إسرائيل، لا تدخلوا مع هذا الشعب الأرض التي وعدتهم بها) يعنون: أن بلاد الشام عظيمة؛ لذلك لم يدفنا فيها؛ بل دفنا في التيه مع العصاة^(١).

كما زعم اليهود أن الذي صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه هو هارون عليه السلام عليه السلام - حاشاه ذلك، فقد جاء في التوراة العبرية ما نصه: (وغيض الله على بني إسرائيل لما عبدوا العجل الذي صنعه هارون)^(٢). وجاء في سفر الخروج: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسيير أماننا؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم و أتوا بها إلى هرون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر)^(٣).

وتذكر التوراة عن سليمان أنه ترك عبادة الله وعبد آلهة أخرى، فجاء في سفر الملوك: (وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان

(١) الحسام الممدود في الرد على اليهود: ص ١٨٢-١٨٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٨٦-١٨٧.

(٣) الكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ١-٤.

وراء عشتروث الآهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه... فغضب الرب على سليمان؛ لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين. وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب. فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً^(١).

كما يذكر الإنجيل ظلم اليهود، وتكفيرهم وقتلهم لمن آمن بالمسيح، بل وتكفيرهم للمسيح عليه السلام؛ فبعد أن سأل المسيح عليه السلام اليهود: لماذا يسعون في رجمه؟ (أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن؛ بل لأجل تجديف^(٢)). فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً^(٣). (فَشَقَّ رَئِيسُ الْكُهَنَةِ ثِيَابَهُ وَصَرَخَ: قَدْ جَدَّفَ! مَا حَاجَتْنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ. هَا قَدْ سَمِعْتُمْ تَجْدِيفَهُ. مَاذَا تَرُونَ؟ فَأَجَابُوا وَقَالُوا: إِنَّهُ مَسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ! حِينَمَا بَصَقُوا فِي وَجْهِهِ، وَلَكُمُوهُ، وَآخَرُونَ لَطَمُوهُ قَائِلِينَ: تَبَّأً لَنَا، أَيُّهَا الْمَسِيحُ، مَنْ ضَرَبَكَ^(٤)). ويحكم التلمود على عيسى عليه السلام بأنه - حاشاه ذلك - في (لجات الجحيم بين الزفت والقطران والنار)^(٥)، وأن (المسيح ارتد عن دين اليهود وعبد الأوثان)^(٦)، كما زعم اليهود أن المسيح ساحر، وأنه تعلم ما كان يقوله للناس من حبر مطرود من الكنييس اليهودي لكفره. كما زعموا أن حوارى عيسى ملحدون وكفرة^(٧).

(١) الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، الإصحاح ١١: ٤-١٢.

(٢) التجديف في اللغة: هو الكفر بالنعمة. ينظر: تاج العروس: ١١٠/١٢. وأما المراد بها عند أهل الكتاب، فهو: كلام غير لائق في شأن الله وصفاته. ينظر: قاموس الكتاب المقدس ص ٢٥٣.

(٣) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٠: ٣٣.

(٤) إنجيل متى، الإصحاح ٢٥: ٦٥-٦٨.

(٥) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص ١١٧.

(٦) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص ١١٧.

(٧) ينظر المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص ١١٨-١١٩.

فاليهود كذبوا المسيح عليه السلام، وأنكروا نبوته، والنصارى كذبوا عليه بزعمهم أنه إله. قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ١٧٢].

ويحكم اليهود على نبي الله عيسى عليه السلام بأنه كافر مضلل، وأفسد شعب اليهود: (ضلل يسوع، وأفسد إسرائيل وهدمها)، وبأنه - حاشاه ذلك - مدفون في جهنم: (إن يسوع مات كبهيمة، ودفن في كومة قذر... حيث تطرح الكلاب والحمير النافقة)^(١). كما يصف اليهود ما أتى به عيسى من عند الله بالكذب والابتداع^(٢).

ولم يسلم نبينا محمد ﷺ من تكفير اليهود: ففي قول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ذكر المفسرون أن اليهود، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفر اليهود به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه^(٣). وروى الإمام أحمد في حديث طويل أن أناساً من يهود المدينة كانوا ينتظرون مبعث نبي، فلما بعث من العرب؛ كفروا به بغياً، وحسداً^(٤).

(١) هذه النصوص منقولة من كتاب: فضح التلمود، الأب: أي. بي. براناييس: ص ٦٦.

(٢) ينظر: فضح التلمود: ص ٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٣٠.

(٤) في المسند، حديث رقم (١٥٨٤١) ١٦٤/٢٥، وحسن إسناده محقق المسند.

المطلب الرابع

تكفير اليهود للأمم الأخرى

أطلق اليهود التكفير على كل الأمم، حتى ولو كانوا متبعين لرسول أرسلهم الله، ونظروا لهذه الأمم على أنها شعوب ضالة لا تستحق الإيمان، وإنما هي مسخرة لخدمة شعب الله المختار، وقسم اليهود الشعوب إلى قسمين لا ثالث لهما: القسم الأول: هم اليهود، والقسم الثاني: سائر الأمم من غير اليهود^(١). وقد سبق الحديث عن اليهود وزعمهم أنهم الشعب الذي اختاره الله من بين سائر الشعوب، والحديث سيكون عن نظرة اليهود للأمم الأخرى، وإطلاق اليهود الكفر والضلال على بقية الشعوب من غير اليهود.

جاء في التوراة: (أَلَسْتُ أَنْتَ إِلَهَنَا الَّذِي طَرَدْتَ سَكَانَ هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ أَمَامِ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ، وَأَعْطَيْتَهَا لِنَسْلِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ إِلَى الْأَبَدِ)^(٢). (وكانت هَيْبَةُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَمَالِكِ الْأَرْضِ حِينَ سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ حَارَبَ أَعْدَاءَ إِسْرَائِيلِ)^(٣). (أُعَادِي أَعْدَاءِكَ وَأُضَايِقُ مُضَايِقِكَ)^(٤)، وفيها - أيضاً -: (هللوا غنوا للرب ترنيمة جديدة تسيحته في جماعة الأتقياء. ليفرح إسرائيل بخالقه، ليبتهج بنو صهيون بملكهم. ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا له؛ لأن الرب راض عن شعبه يجمع الودعاء بالخلاص. ليبتهج الأتقياء بمجد ليرنموا على مضاجعهم. تنويهات الله في أفواههم، وسيف ذو حدين في يدهم. ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب. لأسر ملوكهم بقيود وشرفاتهم بقبول من

(١) ينظر: التلمود، آ. كوهن: ص ١١٣-١٢٢.

(٢) الكتاب المقدس، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٠: ٧.

(٣) الكتاب المقدس: سفر أخبار الأيام الثاني: الإصحاح ٢٠: ٢٩.

(٤) الكتاب المقدس: سفر الخروج: الإصحاح ٢٣: ٢٢.

حديد. ليجروا بهم الحكم المكتوب كرامة هذا لجميع أتقيائه هللوا^(١).
 ويعتبر التلمود الأجانب كلاباً، وأن (الكلب أفضل من الأجانب؛ لأنه
 مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم الأجانب، وغير
 مصرح له أيضاً أن يعطيهم لحمًا، بل يعطيه للكلب؛ لأنه أفضل منهم. والأمم
 الخارجة عن دين اليهود ليست فقط كلاباً، بل حميراً أيضاً^(٢).
 وفي التلمود لا صلة مطلقاً بين الأمم الخارجة وبين دين اليهود؛ لأنهم أشبه
 بالحمير، ويعتبر اليهود بيوت باقي الأمم نظير زرائب للحيوانات: (أيها اليهود،
 إنكم من بني البشر؛ لأن أرواحكم مصدرها روح الله، وأما باقي الأمم
 فليست كذلك؛ لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة)^(٣)؛ بل إن الخارجين عن
 دين اليهود هم (خنازير نجسة تسكن الغابات، ويلزم المرأة أن تعيد غسلها إذا
 رأت عند خروجها من الحمام شيئاً نجساً، ككلب، أو حمار، أو مجنون، أو
 أمي، أو جمل، أو خنزير، أو حصان، أو مجذوم. والخارج عن دين اليهود
 حيوان على العموم: فسمه كلباً، أو حماراً، أو خنزيراً، والنظفة التي هو منها
 هي نظفة حيوان)^(٤). كما أن (المرأة الغير اليهودية هي من الحيوانات، وخلق
 الله الأجنبي على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا
 لأجلهم؛ لأنه لا يناسب أمير أن يخدمه ليلاً ونهاراً حيوان، وهو على صورته
 الحيوانية! كلا ثم كلا، فإن ذلك منابذ للذوق والإنسانية كل المنابذة، فإذا
 مات خادم لليهودي أو خادمة، وكانا من المسيحيين، فلا يلزمك أن تقدم له
 التعازي بصفة كونه فقد إنساناً، ولكن بصفة كونه فقد حيواناً من

(١) الكتاب المقدس: سفر المزامير: المزمور ١٤٩. وينظر المزمور ٨٣.

(٢) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ١٨٩.

(٣) المصدر السابق: ص ١٩٠.

(٤) المصدر السابق: ص ١٩٠-١٩١.

الحيوانات المسخرة له)^(١)، كما أن على اليهودي أن لا يبالغ في مدح الخارجين عن دين اليهودية، ولا يصفهم بالحسن والجمال؛ إلا إذا قصد أن يمدحهم كما يمدح الإنسان حيوانات؛ لأن الخارج عن دين اليهود يشبه الحيوان^(٢).

بل إن التلمود يعتبر أن الخطأ في حق الله - تعالى - أهون من الخطأ في حق اليهودي؛ ولذلك فإنه (يُصفح عن الأمي إذا جدّف على الله تعالى، أو قتل غير إسرائيلي، أو زنى بامرأة غير يهودية ثم تهوّد؛ لكنه لا يصفح عنه إذا قتل يهودياً، أو زنى بامرأة يهودية ثم صار يهودياً)^(٣).

وبالتالي فإن جميع الأمم والشعوب الأخرى من غير اليهود في نظر اليهود هم كفرة لا يستحقون العطف والشفقة، ولو ادعوا أنهم أصحاب رسالة ودين مثل النصراني والمسلمين؛ فحكموا على غيرهم من مخالفيهم بالكفر حتى وإن كانوا على حق؛ بل إن الذي ليس يهودياً هو عدو لله وعدو لليهود، مهما كان دينه، كما أن كل خارج عن مذهب اليهود فليس بإنسان، ولا يجوز أن تستعمل معه الرأفة، كما يعتقد اليهود أن غضب الله موجه إلى كل خارج عن اليهودية، ولا يلزم أن تأخذ اليهود شفقة به؛ إذ ليس من العدل - بزعم اليهود - أن يشفق الإنسان على أعدائه ويرحمهم^(٤). كما يحكم اليهود على مخالفيهم بالكفر والخلود في النار: (وحيث أبناء ايسو (المسيحيون)، وأبناء إسماعيل (الأتراك) بالإضافة إلى المسيح ومحمد... كالكلاب النافقة... هؤلاء

(١) المصدر السابق: ص ١٩١.

(٢) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ١٩١.

(٣) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ٢٠٥، وفي هذا الموضوع نقص استدركته من طبعة دار القلم: ص ٩٢.

(٤) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ١٩١-١٩٢، وينظر الكتاب نفسه: ص ٢٠٣-٢٠٧، والحسام الممدود في الرد على اليهود: ص ١٨٧-١٩٢.

جميعاً مدفونون معاً^(١).

وجائز لبني إسرائيل على حسب تعاليم التلمود أن يغشوا الكفار؛ لأنه يقول: (يلزم أن تكون طاهراً مع الطاهرين، وندساً مع الدنسين)^(٢). ومحظور على اليهود أن يحيوا الكفار بالسلام ما لم يخشوا ضررهم وعدوانهم؛ ولهذا فإن النفاق جائز، وإن اليهودي يمكنه أن يكون مؤدياً مع الكافر ويدعي محبته كاذباً إذا خاف وصول الأذى منه إليه. فيجوز عند اليهود استعمال النفاق مع الكفار، وهؤلاء الكفار هم كل الخارجين عن الدين اليهودي^(٣). وقتل غير اليهودي لا يعد جريمة عند اليهود؛ بل فعلاً يرضي الله^(٤). ولو وجد اليهودي كافرًا في حفرة فلا يخرج منه^(٥). ومن العدل عند اليهود (أن يقتل اليهودي بيده كل كافر؛ لأن من يسفك دم الكفار يقرب قرباناً لله)^(٦). ومن المفروض على اليهود قتل كل الخارجين عن دينهم؛ لأن قتلهم من الأفعال التي يكافئها الله عليها بزعمهم؛ فإذا لم يتمكن اليهودي من قتلهم، فمفروض عليه أن يتسبب في هلاكهم^(٧).

ونلمس هذا المفهوم إلى حد ما في التوراة، ففيها: (ويقف الأجنبي ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثتكم وكراميتكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تُسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرن)^(٨)، (قومي

(١) فضح التلمود: ص ٦٧. والمقصود بالأتراك هم جميع المسلمين؛ لأن الأتراك في عصر المؤلف هم أشهر المسلمين.

(٢) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ١٩٢.

(٣) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ١٩٢.

(٤) ينظر المصدر السابق: ص ٢٠٣.

(٥) ينظر المصدر السابق: ص ٢٠٤.

(٦) الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ٢٠٥.

(٧) ينظر الكنز المرصود في فضائح التلمود: ص ٢٠٥.

(٨) الكتاب المقدس: سفر أشعياء: الإصحاح ٦١: ٦-٥.

ودوسي يا بنت صهيون لأنني أجعل قرنك حديداً وأظلافك أجعلها نحاساً فتسحقين شعوبا كثيرين^(١). (متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتملكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك. ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم، بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك؛ لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى فيحمرى غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً، ولكن هكذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريتهم، وتحرقون تماثيلهم بالنار)^(٢). فلم يستثن من هذه الأمم من آمن بما آمنت به اليهود، بل العقوبة تشمل هؤلاء الأقوام جميعاً، فلا بد من قتلهم، ولا يقبل اليهود منهم عهداً، ولا ذمة.

يقول إسرائيل شاحاك^(٣): (إن مجتمعنا الاستبدادي اعتمد ولقرون من الزمن عادات بربرية وغير إنسانية، موجهة ضد كل كائن من الكائنات البشرية. لنقل مثلاً إن يهودياً من الأتقياء وصل للمرة الأولى إلى أستراليا وصادف مروره بالقرب من مدفن خاص بالسكان الأصليين، فعلى هذا اليهودي وكفعل عبادة الله، أن يلعن أمهات الأموات المدفونين فيه)^(٤).

(١) الكتاب المقدس: سفر ميخا: الإصحاح ٤: ١٢.

(٢) التوراة، سفر التثنية: الإصحاح ٧: (١-٥).

(٣) يهودي معاصر، ولد في بولندا، وكان أحد الناجين من معسكرات الاعتقال النازية، جاء إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية، وخدم في الجيش الخدمة الإجبارية، كان أستاذاً لمادة الكيمياء في الجامعة العبرية بالقدس إلى أن تقاعد. ينظر مقدمة إدوارد سعيد لكتاب شاحاك "الديانة اليهودية وتاريخ اليهود" ص ٥-١١.

(٤) الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: ص ٥١.

المبحث الثاني

جذور ظاهرة التكفير عند النصارى

المطلب الأول

الاختلاف في طبيعة المسيح ودوره في تأصيل ظاهرة التكفير عند النصارى

لعل أصل التكفير عند النصارى مبني على افتراقهم واختلافهم في طبيعة نبي الله عيسى عليه السلام: أهو إله يعبد كما يعبد الله تعالى؟ أم هو بشر مخلوق، ونبي أرسله الله إلى الخلق بشيراً ونذيراً؟ فنتج عن هذا الاختلاف افتراقهم إلى طوائف وشيع يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، وبسبب هذا الاختلاف عقدت المجمع النصرانية المشهورة المعروفة باسم: (المجمع المسكونية) قررت فيها عقائد جديدة ما أنزل الله بها من سلطان فزادتهم تفرقاً واختلافاً فوق اختلافهم وفرقتهم.

ولقد اختلفت النصرانية إلى فرق كثيرة، أشهرها ثلاث فرق، هي: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستنت، لكل فرقة منها اعتقادها الخاص بها، وكل أمة منها تلعن أختها، ويكفر بعضهم بعضاً^(١).

ولعل من أهم الاختلافات بين النصارى: اختلافهم في طبيعة المسيح عليه السلام، فالنصارى الكاثوليك- والمراد بالكاثوليك: أي المذهب العام، وعلى هذا المذهب أغلب النصارى- يعتقدون بأن للمسيح عليه السلام بعد التجسد طبيعتان: إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية. وأنه قبل التجسد لم يكن له إلا الناسوتية منهما، وهي التي حملت بها مريم عليها السلام، ثم بعد ولادته

(١) بل وصل الأمر إلى وقوع مذابح عدة بين طوائف النصارى، ينظر: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي،

هيلين إيليري: ص ٨١-٨٩.

من مريم حلت طبيعته الناسوته مع الطبيعة اللاهوتية. وأن الصلب وقع على الناسوت فقط دون اللاهوت، وأن اللاهوت فارق الناسوت ساعة الصلب، وأن الناسوت عاد كما كان قبل حلول اللاهوت فيه. وأن الناسوت -الذي وقع عليه الصلب- قام من الأموات ليصعد إلى اللاهوت في الملكوت^(١).

وأما الأرثوذكس فيؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة فقط جامعة بين اللاهوت والناسوت، وأن الذي ولد من مريم هو الإله، وأن اللاهوت لم يفارق الناسوت لحظة واحدة، وأن مريم حملت بهما جميعاً، وأن الصلب قد وقع على اللاهوت والناسوت معاً، وأن اللاهوت نفسه هو الذي قام من الأموات ليصعد إلى الملكوت^(٢). تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

أما سبب نشأة الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية فيعود إلى مظاهر الفساد التي كانت تعيشها الكنيسة الكاثوليكية وقسستها، والتي من أبرزها اعتقادهم بعصمة البابا، وحصر فهم الكتاب المقدس وتأويله على البابا وأتباعه من القساوسة دون غيرهم من أتباع النصرانية، فضلاً عن بيعهم لصكوك الغفران لمن شاءوا بلا توبة. ومحاربتهم للعلم والعلماء، وحرق بعضهم وقتل آخرين؛ كل هذه الأمور مجتمعة وغيرها أدت إلى نقمة عوام الناس ومفكريهم على الكنيسة الكاثوليكية، مما أدى إلى خروج عدة دعوات إصلاحية في القرن السادس عشر، وكان أهمها ظهور حركة إصلاحية دينية على يد قسيس يقال له: "مارتن لوثر"^(٣) الذي لم يخرج عن اعتقاد الكاثوليك

(١) ينظر: الفرق والمذاهب المسيحية، سعد رستم: ص٦٤-٧٤. والمسيحية، د.عبدالمعزم فؤاد: ص٢٧٢.

(٢) ينظر: الفرق والمذاهب المسيحية: ص٦٤-٧٤، والمسيحية: ص٢٧٢.

(٣) مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م)، ولد وتوفي في ألمانيا، رسم كاهناً عام (١٥٠٧م)، وفي عام (١٥٢٠م) أصدر البابا حرماناً بحق لوثر بسبب معتقداته المخالفة للكنيسة الكاثوليكية؛ لكن لوثر لم يأبه لذلك بل استمر في مقاومة سلطة البابا حتى وفاته، فتمخض الإصلاح الذي دعا إليه إلى انشقاق كبير في الكنيسة نتج عنه المذهب البروتستانتي. لينظر معجم الإيمان المسيحي: ص٤١٧

حول طبيعة المسيح عليه السلام.

لقد وقع بين مارتن لوثر وبين الكنيسة صدام فكري عنيف كان من نتائجه حدوث الانقسام، وظهور ما يعرف بالحركة البروتستانتية على الساحة الأوروبية. كما حارب لوثر رجال الكنيسة الكاثوليكية في زعمهم تفردهم بفهم الإنجيل، ودعا أتباعه وكل النصارى إلى قراءة الإنجيل وفهمه وتفسيره دون الرجوع إلى رجال الكنيسة، فسمي أتباعه باسم (الأصوليون) و(الإنجيليون)، وسميت الكنائس التابعة له بـ(الكنائس الإنجيلية)، والتي أطلق عليها اسم (البروتستانت)، والتي تعني: المحتجون. ولقد انتشرت الديانة البروتستانتية النصرانية في ألمانيا وشمال أوروبا، وبريطانيا، ومنها انتقلت إلى أمريكا^(١).

وطبيعة عيسى عليه السلام في الإسلام: أنه بشر خلق من غير أب، كما خلق - تعالى - آدم عليه السلام من غير أب وأم، قال - تعالى - ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وأن عيسى ﷺ نبي من أنبياء الله تعالى، بعثه الله - جل وعلا - رسولا إلى بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أُنَى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وأنه عليه السلام مجدد لشريعة موسى عليه السلام ومكمل لها، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وعيسى عليه السلام لم يدع الألوهية أو الربوبية؛ بل أقر بعبوديته لله رب

(١) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٩٠/٤-١٩٥، والهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص ١٨٧، والفرق والمذاهب المسيحية: ص ١٢١، والمسيحية: ص ٢٩٥.

العالمين، قال جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

المطلب الثاني

أهم مصطلحات التكفير ومرادفاته عند النصارى

يعرّف النصارى الكفر بأنه: لا مبالة بالله وبشريعته، والسعي وراء سعادة فورية على حساب القريب^(١).

وتندرج تحت كلمة الكفر مصطلحات أخرى عند النصارى، منها:

صاحب البدعة: وهو من يرفض عمداً قضية، أو بعض قضايا الإيمان، ويدعو لهذا الضلال^(٢).

ومنها: التجديف، والمراد به: شتيمة ونميمة. ويقصد بها في الكتاب المقدس كلام غير لائق في شأن الله وصفاته^(٣).

ومنها: الهرطقة، والهرطقة (heresy) كلمة أغريقية الأصل مرادفة للفظ الكفر، معناها: الخروج على مجموعة الأفكار الدينية التي يؤمن بها السواد الأعظم من الناس في مجتمع ما وزمن ما. وقد أطلق هذا اللفظ - في الغالب - على الخارجين عن الكنيسة الكاثوليكية (والأرثوذكسية بدرجة أقل)، ولا يختص بالأفراد؛ بل أطلق على الحركات الدينية المعارضة، ففي عام (١٥٥م) اتهم أسقف روما الكنائس الشرقية بالهرطقة، وفي مستهل عصر النهضة الأوربي كانت البروتستنتينية هرطقة بالنسبة للكاثوليكية (ولا تزال). كما أطلقت الكنيسة على بعض العلماء: هرطقة، أمثال: الإيطالي غاليليو^(٤)،

(١) معجم الإيمان المسيحي، الأب: صبحي حموي اليسوعي، والأب: جان كوربون: ص ٣٩٨.

(٢) معجم الإيمان المسيحي: ص ٢٩٤. وينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص ١٥.

(٣) قاموس الكتاب المقدس: ص ٢٥٣.

(٤) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي (١٥٦٤-١٦٤٢م)، ولد ومات في إيطاليا، قام باكتشافات عدة لم ترض الكنيسة عن بعضها، فسجنته؛ ثم أجبرته على المكوث في بيته حتى مات. لينظر معجم الفلاسفة: ص ٤٢٢.

وعلى من قاوم السلطة الطاغية للكنيسة أمثال: مارتن لورثر، وتطلق بالمعنى الدقيق على الذين قالوا بالوحدانية، وببشرية المسيح عليه السلام^(١). والنصارى ملزمون في الحياة بالانفصال عن المجدفين: فكل من خالف تعاليم المسيح، ونفى أنه ابن الله بزعمهم؛ وأنه إله ابن إله فهو مجدّف^(٢). جاء في الكتاب المقدس: (كل من تعدى ولم يثبت في تعليم المسيح؛ فليس له الله. ومن يثبت في تعليم المسيح؛ فهذا له الآب والابن جميعاً. إن أحد يأتاكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت، ولا تقولوا له سلام؛ لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة)^(٣). وفيه: (من جدف على روح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد؛ بل هو مستوجب دينونة أبدية)^(٤).

- (١) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص ١٧-٤٣. والهرطقة في الغرب، د. رمسيس عوض. والجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليري: ص ٤٥.
- (٢) ينظر كنيس في الكنيسة العلاقات المسيحية اليهودية عبر التاريخ: ص ١٩٧.
- (٣) الكتاب المقدس، رسالة يوحنا الثانية: ٩-١٠.
- (٤) الكتاب المقدس، إنجيل مرقس، الإصحاح ٣: ٩.

المطلب الثالث

الجدور التاريخية للتكفير عند النصارى

لقد بدأت الكنيسة مبكراً في إطلاق لفظ الكفر ومرادفاته على كل من خالف أمرها، مما مكنها من التدخل في شؤون الدولة الرومانية. وأصبحت تخلع وتنصب من تشاء من قياصرة روما، وتأمروهم أن يدخل رعاياهم المسيحية قصراً، تحت تهديد التعذيب والموت، ولا تزال الكنيسة إلى اليوم تعتبر حرية الأديان ضد تعاليمها وأقرب لتعاليم الوثنية^(١).

وتطور الأمر إلى السعي في تنفيذ أحكام الردة على كل من استحق الكفر في نظر قادة الكنيسة، ففي عام ٣٠٤م ظهرت الفرقة بين النصارى بعد موت البابا، واستمر عرش البابوية خالياً لمدة أربعة أعوام لانشغال النصارى بقضية جزاء المرتدين عن الكنيسة ثم عادوا إليها: هل يدفعون غرامة أم جزية أم لا؟^(٢).

وأصبح لفظ الكفر يطلق على من لم يطع البابا طاعة عمياء؛ بل وصل الأمر إلى أن كفر بعض من تبوأ منصب البابوية كل من خالفه، سواء كان ذلك المخالف قسيساً أو ملكاً أو من عامة الشعب، وكفر القساوسة والرهبان بعضهم بعضاً^(٣).

يقول البابا اينوسنس الثالث^(٤): (كل رجال الدين ينبغي لهم أن يطيعوا

(١) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٢٧/٤-٣١، والهرطقة في المسيحية: ص ١٠٨. والتاريخ الأسود للكنيسة، القس دي روزا: ص ٣٩. والجانب المظلم في التاريخ المسيحي: ص ٧٧-٧٩.

(٢) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص ٣٩-٤٠.

(٣) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٢٩/٤، والتاريخ الأسود للكنيسة: ص ٥٣-٨٢.

(٤) اعتلى كرسي البابوية من عام ١١٩٦م حتى عام ١٢١٦م تقريباً، يعتبر من أكثر باباوات =

البابا حتى لو أمرهم بالشر، إذ لا يوجد من يستطيع الحكم على البابا وتقييمه^(١).

وقال البابا ليو الثالث عشر^(٢): (حتى إن طالبتك الكنيسة أن تقول: اثنين واثنين هو ستة)^(٣).

ويقول البابا بونيفاس الثامن^(٤): (إن صدر راعي الكنيسة الرومانية هو منبع كل القوانين؛ لذلك وجبت الطاعة العمياء له، حتى تستقر الأمور)^(٥).

وبلغ بالقساوسة الإسراف في التكفير لدرجة أن أصبح لفظ الكفر يطلق على من خالف البابا في توافه الأمور؛ فرغم (أن العديد من آباء الكنيسة قد أدانوا كثيراً من الأشخاص بتهمة الردة عن الدين؛ إلا أن البابا بولس الرابع^(٦) غلب الجميع في توصيف الردة؛ فقد كانت أقرب شيء إلى قلبه، وأسهل قوله على لسانه، فهو مثلاً أدان بها مثلاً صنع تمثالاً للمسيح مصلوباً لم يعجبه، واعتبر رداءة صنعه إهانة للمسيح، كما حكم بالموت على كل من لم يقيم

= الكنيسة بذخاً لدرجة أن لباسه كان مرصعاً بالجواهر، ويركب حصاناً مرصعاً بالجواهر أيضاً. في سنة ١٢١٣م استأنف الدعوة إلى حملة صليبية إلى الشرق تقرر القيام بها عام ١٢١٧م؛ لكن شاء الله أن تكون وفاة هذا الصليبي الحاقد عام ١٢١٦م قبل إنفاذ الحملة. لينظر التاريخ الأسود للكنيسة: ص ٥٧. وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٥٩.

(1) التاريخ الأسود للكنيسة: ص ٦٠.

(2) اعتلى كرسي الباباوية من عام ١٨٧٨م حتى عام ١٩٠٣م، ترأس الكنيسة الكاثوليكية لمدة ربع قرن، وتوفي عن عمر يناهز ٩٣ عاماً. لينظر التاريخ الأسود للكنيسة: ص ١١٦٥.

(3) المرجع السابق: ص ١٦٥.

(4) اعتلى كرسي الباباوية من عام ١٢٩٤م حتى عام ١٣٠٣م. اصطدم بفيليب الرابع ملك فرنسا. لينظر معجم الإيمان المسيحي: ص ١٢٢.

(5) التاريخ الأسود للكنيسة: ص ٦٣.

(6) كان هذا البابا حاد الطباع سليل اللسان، في عهده وبسببه تحولت الكنيسة الكاثوليكية في انكلترا إلى المذهب البروتستنتي، وانفصلت عن روما. كانت وفاته سنة ١٥٥٩م، وعندما توفي نزع الجماهير تمثاله من مجلس الشيوخ الروماني، وألقوه في النهر. التاريخ الأسود للكنيسة: ص ١٩٣.

بأيام الصيام ، وهكذا^(١).

وكان البابا بيوس الخامس^(٢) ينذر طباخه بتهمة الردة عن الدين إذا هو لم يلتزم بأطعمة الصيام^(٣). ووصل الأمر بانحدار الكنيسة في التكفير في عصور لاحقة إلى أن قال أحد الكاثوليك: (إنني أعتقد أنه من الأفضل أن يكون الإنسان وثيقاً عن أن يؤمن بدين محاكم التفتيش)^(٤)، وقال آخر: (إن المسيح نفسه كان سيعتبر مشعوذاً؛ لو كان حياً في عصر محاكم التفتيش)^(٥).

وهناك آباء آخرون أفتوا بأن كل مولود يتوفى قبل تعميده؛ فمصيره إلى جهنم رأساً، ويعاني من شتى أنواع العذاب^(٦). وأفتى جمع من آباء الكنيسة بكفر من لم يؤمن بعصمة البابا من الخطأ^(٧).

ولعل أول تكفير صدر من النصرانية كان موجه إلى الموحدين منهم، الذين آمنوا بالله رباً، وإلهاً لا شريك له في عبوديته، وبعيسى عليه السلام نبياً، وأنه خلق من خلق الله. مما يجعل الكنيسة النصرانية تحكم بكفرهم بداعي الهرطقة.

(١) المرجع السابق: ص ٩٤.

(٢) اعتلى كرسي الباباوية من عام ١٥٦٦م حتى عام ١٥٧٢م، أصدر حرماناً في حق ملكة انكلترا إليزابيث الأولى، كوّن تحالفاً صليبياً من أسبانيا والبنديقية ضد الدولة العثمانية في البحر المتوسط. لينظر معجم الإيمان المسيحي: ص ٢٢٨.

(٣) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص ٩٤، والأمثلة على ذلك كثيرة، انظر الكتاب نفسه: ص ١١٦-١١٨، ١٤١-١٤٢، ١٤٨-١٤٩.

(٤) التاريخ الأسود للكنيسة، القس دي روزا: ص ١٢٤.

(٥) المرجع السابق: ص ١٢٤.

(٦) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص ١٤٠، ٢٠٣.

(٧) ينظر: التاريخ الأسود للكنيسة: ص ١٥٥-١٥٦، ١٥٨-١٦١.

المطلب الرابع

صور من تكفير النصارى لمخالفهم

تاريخ النصارى مليء بأمثلة كثيرة على غلو النصارى في التكفير،
ومن الأمثلة على تكفير النصرانية لمخالفها حتى وإن كانوا على
الاعتقاد الصحيح ما يلي:

▪ الإبيونية:

لعل أولى الهرطقات الكبرى في نظر الكنيسة هي ما اعتقدته الإبيونية:
وهي من طوائف اليهود، وعاشت بشرق الأردن في القرنين الثاني والثالث
الميلاديين، ثم اختفت أواخر القرن الرابع. تنسب إلى رجل اسمه (إبيون) كان
قد أُلّف إنجيلاً من تلك الأناجيل التي حرمت بعد ذلك، ومنع تداولها. تعتقد أن
المسيح المخلص أو المهدي اليهودي المنتظر، وبالتالي فهو محض نبي كالأنبياء،
ورسول قد خلت من قبله الرسل. وحافظت على الشرائع اليهودية التقليدية،
كالختان وكرهة الخمر وتقديس أورشليم. وقد عدت الكنيسة هذه
المعتقدات هرطقة؛ لأنها تخالف اعتقادها في المسيح، من أنه إله وابن إله^(١).

▪ بولس السميساطي:

من بلدة سُميساط الواقعة على نهر الفرات. عاش في شمال الشام في القرن
الثالث الميلادي. ارتقى في خدمة الكنيسة حتى أصبح أسقفاً لأنطاكية سنة
(٢٦٠م)، وظل في منصبه حتى خُلع عنه بقرار من الكنيسة سنة (٢٦٨م) وذلك
بسبب نفيه لألوهية المسيح عليه السلام واعتقاده ببشريته وأنه خلق من خلق

(١) ينظر: اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، يوسف زيدان: ص١٠٨-١١٠، وموسوعة فلاسفة
ومتصوفة اليهودية، د.عبد المنعم الحفني: ص٤٨. والهرطقة في الغرب، د.رمسيس عوض: ص١٩.

الله، وأنه نبي من أنبياء الله^(١). بين يوسابيوس القيصري سبب خلع بولس السُمِّيَّسَاطِي من الكنيسة لاعتقاده ببشرية المسيح، فيقول: (ولأنه كان يعتقد اعتقادات وضيعة في المسيح، مخالفة لتعاليم الكنيسة، أي أنه كان في طبيعته إنساناً عادياً)^(٢).

قال ابن حزم^(٣): (ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي، وكان بطريكياً بأنطاكية قبل ظهور النصرانية. وكان قوله: التوحيد المجرد الصحيح، وإن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله - تعالى - في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا آلهية فيه ألبتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة؟ ولا روح القدس؟)^(٤).

■ لوقيانوس:

كان كاهناً لكنيسة انطاكية، وتوفي في زمن الاضطهاد سنة ٣١٢م. اتهم بالهرطقة لقوله بأن الله واحد لا مساوي له. وأن كل ما هو خارج عنه - تعالى - فهو مخلوق. ومن ثم فإن الكلمة (الوجوس) مخلوق، فعيسى عليه السلام بشر وليس إلهاً. ودلالة بشريته: جوعه وعطشه واختفاؤه من أعدائه^(٥).

(١) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريير: ١٠١/٢، وكنيسة مدينة الله انطاكية، أسد رستم: ١٢٠/١ - ١٣٠.

(٢) تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري: ص ٣٧٩، ٢٨١، والهرطقة في المسيحية: ص ٧١، والهرطقة في الغرب: ص ٦١.

(٣) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، الإمام الحافظ ولد سنة (٣٨٤هـ) بقرطبة انصرف لطلب العلم وترك ما كان عليه من الوزارة التي كانت له ولأبيه من قبله، تبع مذهب داود الظاهري؛ فنبتة علماء عصره، توفي سنة (٤٥٦هـ). لجدوة المقتبس: ٤٨٩/٢.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١٠٩/١.

(٥) ينظر: كنيسة مدينة الله انطاكية: ١٤٣/١ - ١٤٧، وتاريخ الفكر المسيحي، القس حنا الخضري: ٦١٠/١.

■ آريوس:

ولد بين عامي (٢٥٦-٢٧٠م) وتوفي سنة (٣٣٦م) كان يرى بشرية المسيح، وأنه مخلوق من خلق الله، خلقه الله من عدم، مثله مثل سائر المخلوقات، مستنداً إلى أناجيل لم يطلها التحريف تؤكد أن المسيح ابن الإنسان وليس ابناً لله. فغضبت عليه الكنيسة واتهمته بالهرطقة، وعقد له مجمع نيقية^(١) سنة ٣٢٥م بحضور ٣١٨ أسقفاً، حُرم فيه آريوس، وأقر عزله من الكنيسة، ونفي بعيداً إلى دير في أسبانيا^(٢).

قال ابن حزم: (والنصارى فرق منهم أصحاب آريوس، وكان قسيساً بالإسكندرية، ومن قوله: التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السموات والأرض)^(٣).

■ مكدونيس:

عاش هذا القسيس في زمن الامبراطور الروماني قسطنطين، ويقال إنه كان بطريك العاصمة الرومانية: القسطنطينية، كان ينزه الله عن الشريك والمثيل والند، سواء كان ابناً أو روح قدس، وقال بأن عيسى عليه السلام مخلوق كسائر المخلوقات، وقد ناقشه المجمع، وحرمه، وأسقطه من رتبة الأسقفية وطرد من الكنيسة بسبب اعتقاده التوحيد، وحكم عليه

(١) المجمع عند النصارى: هو مجلس يُدعى إليه جميع أساقفة الكنائس، ويرأسه المقدم بين البطارقة، وعندما انقسمت الكنيسة إلى قسمين: أصبح بطريك القسطنطينية هو الذي يرأس المجمع الأرثوذكسي، والبابا يرأس المجمع الكاثوليكي في روما. وما يتخذ في هذه المجمع من قرارات هي ملزمة لجميع الكنائس التي تتبعها، وتتفق معظم الكنائس على المجمع الأربعة الأولى من بين أكثر من عشرين مجعماً. أما نيقيا: في مدينة من مدن آسيا الصغرى- ضمن تركيا حالياً. لمعجم الإيمان المسيحي: ص٤٣٦-٤٣٨، ٤٥٧-٤٥٨، ٥٢٠.

(٢) ينظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٤٠/٣-٤٥، وكنيسة مدينة الله انطاكية: ٣٢٣/١-٣٦٠. وتاريخ الفكر المسيحي: ٦١٧/١، ١٨/٢. الهرطقة في المسيحية: ص٧٦. والهرطقة في الغرب: ص٧١.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١٠٩/١، وينظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ٢٢٣/١، ٢٢٧.

بالكفر^(١).

قال ابن حزم: (وكان منهم أصحاب مقدونيوس وكان بطريكاً في القسطنطينية، بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بن قسطنطين، باني القسطنطينية. وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه، وكان من قول "مقدونيوس" هذا: التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، إنسان نبي، رسول الله كسائر الأنبياء عليهم السلام، وأن عيسى هو روح القدس، وكلمة الله عز وجل، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، خلق الله كل ذلك)^(٢).

يقول صاحب تاريخ الأقباط عن مجمع القسطنطينية^(٣) سنة ٣٨١م: (كان الغرض من عقد هذا المجمع: محاكمة أصحاب البدع، ومنهم "مقدونيوس"، وكان أسقفاً أقامه الأريوسيون على القسطنطينية سنة ٣٦٠م، ثم عزل سنة ٣٦٠م؛ لماداته ببدعة جديدة هي: إنكار لاهوت الروح القدس...)^(٤).

■ نسطور:

نسطور— والذي تنسب إليه طائفة النسطورية— بطريك القسطنطينية الذي قال إن مريم العذراء لم تلد إلهاً؛ بل ولدت إنساناً، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني، وهذا الاتحاد اتحاد مجازي، وليس حقيقياً؛ لأن الإله منح عيسى عليه السلام المحبة، ووهبه النعمة، فصار بمنزلة الابن. فنفى أن يوجد في المسيح عنصر إلهي كما تزعم بقية الطوائف النصرانية. وقد عقد له

(١) ينظر: معجم الإيمان المسيحي: ص ٤٧٦، وتاريخ الكنيسة القبطية، القس منسى يوحنا: ص ٢٠١-٢٠٢، ٢١١-٢١٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١/١١٠.

(٣) سبق بيان معنى "المجمع"، والقسطنطينية هي مدينة: "إسلامبول" في تركيا، و"مجمع القسطنطينية" المراد هنا: هو المجمع الثاني، الذي وضع حداً للمناظرات الأريوسية، وكفر من ينكر ألوهية روح القدس. ينظر معجم الإيمان المسيحي: ص ٣٧٩.

(٤) النصرانية من التوحيد إلى التثليث، د. محمد أحمد الحاج: ص ١٨٣، عن تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١٧٦/١.

مجمع مسكوني في بلدة إفسوس سنة ٤٣١م لمحاكمته، ومطالبته بالإيمان بأن المسيح إله ابن إله، فرفض، وقال: لن أدعو طفلاً عمره شهران أو ثلاثة: الله^(١).

■ ميشال سرفيه:

هاجم عقيدة التثليث سنة ١٥٣١م في كتابه الموسوم "مغالط الثالث"، ثم كرر مهاجمته لهذه العقيدة الوثنية في كتابه الآخر: "العودة بالمسيحية إلى جذورها الأولى" الذي ألفه سنة ١٥٤١م، ثم صدر مطبوعاً عام ١٥٥٣م. وقرر فيه أن المسيح عليه السلام ليس سوى إنسان مبارك، وليس إلهاً كما تزعم النصارى. فما كان من الكنيسة إلا أن حكمت بكفره وهرطقته، وحكمت بموته حرقاً عام ١٥٥٣م^(٢). والأمثلة كثيرة جداً على تكفير الكنيسة لمخالفها، مما لا مجال لبسطه هنا^(٣).

(١) ينظر: معجم الإيمان المسيحي: ص ٥١٠، وتاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، الأب ألبير أبونا: ٦٠/١-٦١، وتاريخ الكنيسة، جون لوريمر: ٢١٥/٣-٢٢١، وتاريخ الفكر المسيحي: ١٦٩/٢، والهرطقة في المسيحية: ص ٩١.
(٢) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر: ص ١٩٨. وتاريخ الحضارات العام، بإشراف موريس كروزيه: ١٠٣/٤.
(٣) ولمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، ديوسف الكلام: ص ٢٨٥-٣٠٧.

المطلب الخامس

آثار التكفير عند النصارى

كان لإسراف باباوات النصارى وقسيسيهم وبطارقتهم في التكفير، أثره الكبير في العقيدة النصرانية، مما ولد لدى عامة النصارى كراهية الآخر، والسعي إلى القضاء عليه، مستندين في حروبهم التي لم تعرف الرحمة إلى نصوص في الإنجيل المحرف، منها ما جاء على لسان المسيح عليه السلام: (لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِي سَلَامًا عَلَى الْأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِي سَلَامًا؛ بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الْإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالْابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الْإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ!)^(١). مناقضين العبارة المشتهرة عن المسيح: (مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ، فَأَعْرِضْ لَهُ الْآخَرَ أَيضًا. وَمَنْ اسْتَزَع رِدَاءَكَ، فَلَا تَمْنَعُهُ تَوْبَكَ أَيضًا)^(٢).

أولاً: الحروب الصليبية:

تعتبر الحروب الصليبية ثمرة من ثمرات عقيدة التكفير عند النصارى، إذ من يتأمل ما فعله النصارى في حروبهم الصليبية، لا يشك في أن قتلهم لمخالفهم ناتج عن نظرة مسبقة بأن هؤلاء المخالفين كفرة ملاحدة لا يستحقون الحياة، بل لم يسلم مخالفوهم من النصارى من القتل، ففتك الصليبيون بنصارى القسطنطينية قبل أن ينتقلوا إلى القدس، ويحرقوا اليهود أحياء في معابدهم، ويُسيلوا دماء المسلمين في الشوارع^(٣).

يحكي شاهد معاصر، هو القسيس الفرنسي فوشيه دو شارتر^(٤) الذي

(١) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح العاشر: ٣٤-٣٦.

(٢) الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح السادس: ٢٩.

(٣) ينظر محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي: ص ٤٠.

(٤) قسيس فرنسي ولد حوالي عام (١٠٥٨م) في فرنسا، شارك في الحملة الصليبية الأولى التي =

رافق الحملة الصليبية التي احتلت القدس، ما سمعه لحظة سقوط المدينة بأيدي الصليبيين: (في الحال دخل الفرنجة المدينة بجلال في ظهر اليوم الذي يسمى اليوم المهيب، اليوم الذي فدى فيه المسيح العالم بأسره على الصليب. وخلال عزف الأبواق والضجيج والجلبة، شنوا هجومهم ببسالة صارخين: "رب أعطنا العون".. فذب الرعب في قلوب الكفار.. وعندما رأوا ذلك هبوا وهم في قمة الابتهاج داخلين المدينة بأسرع ما في قدرتهم، وانضموا إلى رفاقهم يلاحقون ويذبحون أعدائهم الأشرار بلا توقف.. وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل، ولو كنت هناك لتلطخت قدمك حتى الكواحل بدماء القتلى. ماذا أقول؟ لم يبق منهم أحد، ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً^(١).

ويصف صاحب كتاب تاريخ الحروب الصليبية ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال: (لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة (يقصد الوالي الفاطمي وحرسه). إذ إن الصليبيين - وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد - انطلقوا في شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز. استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم، وطوال الليل. ولم يكن علمُ تانكرد^(٢) عاصماً للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على

= انتهت باحتلال القدس، ثم قضى بقية حياته في القدس، حيث كتب تاريخه هذا؛ إلى أن انقطع عن الكتابة عام (١١٢٧م)، وربما توفي في ذلك العام عن عمر يناهز (٦٨) عاماً. لمقدمة محقق كتاب فوشيه الشارترى: تاريخ الحملة إلى القدس: ص ١٠.

(١) تاريخ الحملة إلى القدس، فوشيه الشارترى: ص ٧٤-٧٥.

(٢) تانكرد أحد القادة الصليبيين الذين دخلوا القدس، وكان قد اتفق مع المعتصمين في المسجد الأقصى على أن يستسلموا له وأن يؤمنهم على حياتهم بأن يضع علمه على المسجد حتى لا يتعرضوا لأذى. ينظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيومان: ٤٢٥/١.

جميع اللاجئين. وحينما توجه "ريموند اجيل" في الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه. وفر يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم؛ بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين. وتركت مذبحه بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم. ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث^(١).

ويصف غوستاف لوبون^(٢) مجازر الصليبيين حين دخلوا القدس، فيقول: (كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون. قال كاهن مدينة لوبوي، ريموند داجيل^(٣): "حدث ما هو عجيب بين العرب، عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم. وبقرت بطون بعضهم. فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرقت بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل. وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا"، وقال واصفاً مذبحه مسجد عمر: "لقد أفرط

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيومان: ٤٢٦/١-٤٢٧.

(٢) عالم نفس واجتماع فرنسي، ولد سنة (١٨٤١م) ألف كتاباً في علم النفس الاجتماعي، وفي حضارات الأمم منها حضارة العرب الذي نشر سنة (١٨٨٤م) وترجم إلى العربية عام (١٩٤٥م) وكان فيه منصفاً إلى حد كبير. بعثته الحكومة الفرنسية إلى الهند، ثم عاد وأخرج كتابه حضارة الهند عام (١٨٨٧م).

توفي سنة (١٩٣١م). للموسوعة العربية الميسرة: ١٥٦٩/٢. المنجد: ص ٤٩٥.

(٣) لم أجد ترجمته.

قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها... ولم يكتفِ الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، ففقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين، واليهود، وخوارج النصارى، الذين كان عددهم ستين ألفاً، فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً^(١).

ثانياً : محاكم التفتيش:

محاكم التفتيش: هي محاكم كاثوليكية هدفها محاربة الهرطقة في كل أنحاء العالم المسيحي. تأسست من مجالس كنسية من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وقد أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر بقرار من البابا جرينوار (جريجوريوس) التاسع^(٢) وذلك عام ١٢٣٢م تقريباً، واستمرت حتى مستهل القرن التاسع عشر الميلادي^(٣).

نشطت محاكم التفتيش في القرنين الخامس عشر والسادس عشر على وجه التحديد، وكانت مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم من خلال محاكمات إكليريكية تقيمها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لقمع أو مكافحة الهرطقة^(٤).

وقد لجأت محاكم التفتيش إلى شتى فنون التعذيب التي لا يقوى على

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص٣٢٦-٣٢٧. وينظر: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي: ص٧٩.
(٢) تولي كرسي البابوية وقد بلغ الثمانين من العمر؛ كان رجلاً قاسي القلب؛ ومن مخازيه: محاكم التفتيش التي أوجدها، فكانت وبالأعلى على البشرية جمعاء، توفى في هذا الطاغية سنة (١٢٤١م). ينظر قصة الحضارة: ٢٩٣/١٥، ١٦/٦٥.

(٣) ينظر: مذابح وجرائم محاكم التفتيش، محمد علي قطب: ص٧٥.

(٤) ينظر: محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها، د.علي مظهر: ص٥١.

احتمالها بشر في حق من كان يُظن أنه من الهراطقة من قطع أوصال وحرق الناس أحياء، ومن إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعته وخفضه معلقاً سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية على النار، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك. وكثيراً ما كانت تصدر أحكام إعدام حرقاً، وكانت احتفالات الحرق جماعية، تبلغ في بعض الأحيان عشرات الأفراد، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المذب تدريجياً، وأيضاً أحواض يقيّد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت. كانوا - أيضاً - يقومون بدفنتهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة. وكان دستور محاكم التفتيش يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتنبش قبورهم. كما يتم حرمان أقاربهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة^(١).

وكان أي انحراف بسيط عن العقيدة النصرانية المحرفة، أو عودة إلى الحق والدين الصحيح هو هرطقة في نظر القائمين على محاكم التفتيش، وتم قتل كثير من الأبرياء وحرقتهم بالنار لأدنى شبهة. وتصدر رجال الدين في كافة الأمصار النصرانية للتصدي لمثل هذه الانحرافات. وكان كل واحد منهم مسؤولاً عن ملاحقة المشبوهين في ابرشيته. وله الحق المطلق في اعتقاله بسبب وشاية وإن كانت من خصومه، أو يعتقله لأنفه سبب. ومن يتم اعتقاله فلا بد له أن يعترف حتى وإن كان بريئاً، ومن رفض: فإنه ينهار ويعترف تحت

(١) ينظر: محاكم التفتيش، غي تستاس- جان تستاس: ص٤٢-٥٣، ٩٢-٩٧. ومذابح وجرائم محاكم التفتيش: ص٧٧، وما بعدها، ١١٧-١١٨، ومحاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، د.عبدالرحمن الحجى: ص٣٤-٣٦.

تهديد التعذيب، وأما من يقاوم محاكم التفتيش ويرفض التراجع عن ما يعتقد أنه فإن مصيره الحرق بالنار لهبطقته^(١).

ولعل من أشهر الذين ماتوا حرقاً المصلح التشيكي المشهور يان هوس، المولود سنة (١٣٦٩م)، رسم كاهناً عام (١٤٠٠م)، وعين عميداً لجامعة براغ عام (١٤٠٢م)، أنكر على بعض أتباع الكنيسة من القساوسة والمطارنة عدم اتباعهم لتعاليم المسيح الحقّة، وانحرفهم عن ما كان يأمر به المسيح، واستغلّاهم البشع لبسطاء الناس، وأخذ أموالهم بغير حق، كما احتج على البابا عندما لجأ الأخير إلى بيع صكوك للغفران عام (١٤١١م)، فالتف حوله ناس كثيرون أحسّوا بصدقه وإخلاصه. عندئذ سعت الكنيسة للقبض عليه؛ فأعطته الأمان بعد أن استدعته للمحاكمة إلا أن البابا وأتباعه غدروا به، فاعتقلوه وجردوه من ثوبه الكهنوتي، وحاكموه بتهمة الزندقة، ومخالفة تعاليمها، وأصدروا أمرهم بكفره وهبطقته، وأسلم للجلاد ليحرقنه علناً بصفته مهرطقاً، وذلك في ٦ تموز من عام (١٤١٥م)^(٢).

وممن حوكم أمام محاكم التفتيش الفيلسوف الإيطالي جيوردانو برينو الذي عمل راهباً أول أمره، ثم آمن بالنظرية التي تقرّر دوران الأرض حول الشمس، المدانة من قبل البابا، فسعوا في طلبه، لكنه هرب وعاش متنقلاً بين دول أوروبا. وكان يشتغل أستاذاً في جامعات هذه البلدان التي يمر بها. وبعد فترة طويلة من الزمن عاد إلى إيطاليا بعد أن استدرجه أحد التجار الأغنياء من البندقية. وطلب منه العودة؛ لتعليم أولاده والعيش بأمان في بلاده إيطاليا، ولكنه سرعان ما غدر به، وسلمه إلى محاكم التفتيش في الفاتيكان.

(١) ينظر: مذابح وجرائم محاكم التفتيش: ص ٨٩-١١٠.

(٢) ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي: ص ٧١١.

فقطعوا لسانه واحرقوه^(١).

وفي إيطاليا - أيضاً - كادت محاكم التفتيش أن تلحق العالم الشهير جاليليو بسابقه، حيث كان مهددا بالموت لولا أنه تدارك نفسه، فقادته ملاحظاته ونظرياته، إلى إثبات أن الأرض كوكب صغير يدور حول الشمس مع غيره من الكواكب، فأرغمته الكنيسة على أن يقرر علانية أن الأرض لا تتحرك على الإطلاق وأنها ثابتة كما يقول علماء عصره، وألزمته بالتراجع عن نظريته. فسلم من الموت، ولم ينفذوا فيه حكم الإعدام. لكنه وضع في إقامة جبرية تحت مراقبة الكنيسة المباشرة إلى أن مات سنة ١٦٤٢م^(٢).

وكانت محاكم التفتيش وسيلة ملوك أسبانيا الصليبيين لتطهير أسبانيا من الهرطقة وجميع من يعتقد بغير الكاثوليكية من المدجنين والموريسكيون^(٣) واليهود. وذلك برغم العهود والمواثيق وما كتب لهم من صكوك أمان؛ فعندما سقطت غرناطة آخر قلاع المسلمين في إسبانيا، سنة (٨٩٨هـ - ٤٩٢م). لم تسلم المدينة إلا بشروط ومعاهدة بين أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر^(٤) وبين الملكين الكاثوليكين، من هذه الشروط: تأمين حياة المسلمين، وكفل الحرية لهم في دينهم ومعاملاتهم وأمورهم الخاصة، وعدم انتهاك حرمتهم أو التعدي عليهم، والمحافظة على

(١) ينظر: أبرز ضحايا محاكم التفتيش، د. رمسيس عوض: ص ٢٩٩-٣٨٤.

(٢) ينظر: أبرز ضحايا محاكم التفتيش: ص ٩-١٥٨.

(٣) المدجنون هم المسلمون الذين يعيشون في أرض يحكمها النصارى. والموريسكيون هم المسلمون الذين يكتفون إيمانهم، ويظهرون أنهم نصارى. وهذه الألفاظ برزت بعد سقوط الأندلس في أيدي النصارى.

ينظر: تاريخ مسلمي الأندلس، أنطونيو دومينغيز هورتز، وبرنارد بنثت: ص ٢٠.

(٤) أبو عبد الله محمد بن علي بن سعد من بني الأحمر، آخر ملوك المسلمين في الأندلس، استعان بالأسبان فخلع عمه وحل محله؛ فقلب النصارى له ظهر المجن وقاتلوه، وانتقض صلحه معهم، حتى سلم لهم مفاتيح غرناطة عام (٨٩٧هـ) ثم عبر البحر إلى المغرب واستقر بفاس، توفي سنة (٩٤٠هـ).

الأعلام: ٦/٢٩٠.

أموالهم ودورهم ومساجدهم...^(١).

لكن تم نقض المعاهدة كلياً، بل والعمل بنقيضها. وتم حظر اللغة العربية، وهدمت المساجد، ومنع المسلمون من الصلاة والصيام، وتم إجبار المسلمين على التنصُّر. وحظر على المسلمين الختان، والاعتسال يوم الجمعة وأيام الأعياد، ومنعوا من اقتناء المصاحف، أو تملك الكتب الإسلامية. ومنعوا من ارتداء اللباس الإسلامي. وأجبروا على أكل لحم الخنزير، وعلى شرب الخمر. فإذا فعل المسلمون محظوراً، أو نقضوا ما أمرهم به النصراني فإن مصيرهم الموت. وإن شكوا في أحد أنه مسلم كشفوا عن عورته؛ فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فإن الحكم بالموت مصيره وأسرته جميعاً. ولو سلموا من هذا كله؛ لم يسلموا من انتهاب أموالهم، وسرقتهم عنوة وبسلطة الكنيسة، وذلك عن طريق الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم حتى أصبحوا أشبه بالرقيق والعبيد^(٢).

وتم إجبار كل المسلمين في قشتالة على التنصير في عام ١٥٠٢م، ثم تم إجبار المسلمين في أراغون على التنصير عام ١٥٢٦م.

ومع هذا: فقد استهدفت محاكم التفتيش من تم إجبارهم على اعتناق المسيحية من المسلمين- والذين تمت تسميتهم بالموريسكيين- للبحث عن الهرطقة من بينهم. ولذا فإن معظم محاكم التفتيش الأسبانية (التابعة للملوك) قد أنشئت في مدن الأندلس الجنوبية حيث كان أغلب الموريسكيين،

(١) ينظر نص الاتفاقية في: نوح الطيب، للمقري: ٥٢٥/٤-٥٢٦، ونهاية الأندلس، محمد عبدالله عنان: ص ٢٤٤-٢٥٢، والموريسكيون الأندلسيون، مرثيديس غارثيا أرينال: ص ٣١-٣٨.

(٢) ينظر: تاريخ مسلمي الأندلس: ص ٢٠-٤٠. والموريسكيون الأندلسيون، ٧٣، ١١٣-١٣٤، ١٥٥-١٦٦، ٢٠٧-٢١٦، ٢٢٩-٢٣٦. ومحاكم التفتيش والموريسكيون، مرثيديس غارثيا أرينال: ص ٨٣-٨٩، ٩٥-١٢٣. ومحاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها: ص ١٩-٢١، ٢٨-٤٢.

فتحكم بتعذيبهم وقتلهم إن لم يعودوا إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية^(١). لاحقاً شملت محاكم التفتيش اليهود منذ نهاية القرن الرابع عشر، وقد كان اليهود يعيشون أجمل أيامهم في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس؛ إلا أنه بعد استيلاء النصارى على الأندلس، وقعت لليهود مجازر مروعة، وكان الخيار الوحيد للسلامة من القتل هو الدخول في النصرانية^(٢). وفي القرن السادس عشر ظهر عدو جديد وهم البروتستانت حيث تم إحراقهم أحياء كهراطقة^(٣).

يقول عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" حيث يقول عن محاكم التفتيش: (صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المَعْمَدِين على أنهم نصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدرج؛ لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة. ونصح كاردينال طليطلة التقي! الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءً، وشيوخاً وولداناً. ولم يرَ الراهب الدومنيكي: بليدا، الكفاية في ذلك، فأشار بضرب رقاب من تَنَصَّرَ من العرب، ومن بقي على دينه منهم، وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تَنَصَّرَ من العرب، فمن المستحب إذاً قتل جميع العرب بحد السيف؛ لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، ويُدخِل النار من لم يكن صادقاً النصرانية منهم)^(٤).

(١) ينظر: محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها: ص ٢٦-٥٠. ومسلمو مملكة غرناطة، خوليو كارو باروخا.
 (٢) ينظر: أسبانيا في تاريخها، أميركو كاسترو: ص ٥٩٢-٦١٢، ومحاكم التفتيش، غي تستاس-جان تستاس: ص ٦٤-٦٧، ٨١-٩٢، وشتات أهل الأندلس، مرثيديس غارثيا أرينال: ص ٥١. ومحاكم التفتيش، جيمس رستن: ص ٣٣-٣٧، ٨٢-١٠٣، ٢٣١-٣٤٥، ٢٨٨-٣٠١.
 (٣) ينظر: محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها، د.علي مظهر: ص ٢٦-٥٠.
 (٤) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص ٢٧٠-٢٧١.

وكان الراهب بيلدا^(١) قد قتل في قافلة واحدة للمهاجرين قرابة مئة ألف في كمائن نصبها مع أتباعه. يقول د. لوبون في كتابه السابق: (الراهب بيلدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقيا)^(٢).

ثالثاً: حرب الصليب في القارة الأمريكية:

عام ١٤٩٢م هي السنة التي سقطت فيها الأندلس بيد النصارى، وفيها اكتشفت أمريكا: بلاد الهندو الحمر، على يد القس كرسستوفر كولمبوس^(٣). وقد عدد سكان أمريكا الجنوبية والكاريبى في عام ١٤٩٢م بحوالي مائة مليون نسمة. وكان الحافز الرئيس لهذا الاكتشاف هو إدخال هذه الشعوب في النصرانية، ومحاربة التمدد الإسلامي، يقول كولمبوس من خلال استهلال الإهداء لمفكرته في رحلته الأولى (الجمعة ٣ آب ١٤٩٢م): (إن سموكم- كاثوليكين ومسيحيين وأمراء- أحبوا العقيدة المسيحية، ويتوقون لرؤيتها تتوسع. وكأعداء ملئة محمد وكل الوثنيين والهرطقة، والذين ارتأوا أن من المناسب أن يرسلوني، أنا كرسستفر كلمبس، إلى الأجزاء المسماة بالإنديز؛ للنظر في الطريقة الممكنة؛ لتحويلهم إلى عقيدتنا المقدسة)^(٤). وفي العام التالي عاد كولمبوس وبرفقته أطياف من المستوطنين الأسبان على رأسهم: قساوسة ورهبان من أجل تلقين شعوب أمريكا مبادئ الإيمان الكاثوليكي، وفرض الكاثوليكية على هذه الشعوب الكفرة وتحويلهم

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص ٢٧١.

(٣) كريستوفر كولومبس (١٤٥١-١٥٠٦م)، ولد في إيطاليا، وانتقل إلى لشبونة، ثم غادرها إلى أسبانيا، ومنها قام برحلته المشهورة التي اكتشف فيها أمريكا، ثم قام بعدها بثلاث رحلات، كان آخرها عام (١٥٠٢م) عاد بعدها إلى أسبانيا، ومات مغموراً. الموسوعة العربية الميسرة: ٤/٢٠٢٤.

(٤) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، الأب مايكل بريير: ص ٨١.

بقوة السيف إلى النصرانية. فبدأ هؤلاء الرهبان في استعباد بعض السكان الأصليين، وتسخيرهم للعمل، وأبادوا بقيتهم وأعملوا في رقابهم السيف ممن لم يؤمن بالمسيحية ولم يخضع للغزاة؛ باعتبارهم كفرة وملحدين، وأعداء للمسيح. وهذه الإبادة الجماعية ما كان لها أن تقع دون غطاء شرعي؛ فهم مؤيدون بفتوى كهنوتية تنص على أنه (يحق للمسيحين اللجوء إلى السلاح بهدف نشر دعوة الإنجيل)^(١)؛ وتماشياً مع نظرية أرسطو القائلة إن البرابرة عبيد النزوع الطبيعي. فإن إخضاعهم للمسيحية أمر مسوغ؛ بل واجب، ومن هنا فإن الأسباب يمتلكون الحق الكامل في حكم برابرة العالم الجديد؛ لأنهم في مرتبة دنيا من نواحي الحكمة والذكاء والفضيلة والإنسانية عند مقارنتهم بالأسبان؛ بل إن رائحة البارود التي تشوي أجساد السكان الأصليين إنما هو رائحة بخور ترتفع إلى رب النصارى؛ حتى إنه لم يأت منتصف القرن السادس عشر إلا وتقلص عدد السكان الأصليين في أقل من قرن من مائة مليون إلى مابين عشرة إلى عشرين مليون نسمة، مما جعل الأسبان والبرتغال يعوضون هذا النقص بجلب الرقيق من أفريقيا، وقدر عدد الرقيق الذين تم جلبهم إلى الأمريكيتين على مدى القرون الأربعة بما يزيد على أحد عشر مليون إنسان^(٢). وعندما زار البابا الهالك يوحنا بولس الثاني جمهورية البيرو تسلم رسالة مفتوحة من مختلف الحركات الوطنية المحلية، جاء فيها: (إلى يوحنا بولس الثاني، نحن - الأندنيين والهنود الأمريكيين - عقدنا العزم على الاستفادة من زيارتكم؛ لكي نعيد لكم كتابكم المقدس؛ لأنه طوال خمسة قرون، لم

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: ص ٨٢.

(٢) ينظر: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: ص ٧٧-٨٢، ٩١-٩٧. وللمزيد ينظر: كتاب المسيحية والسيف وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الأسبان رواية شاهد عيان، للمطران برتولومي دي لاس كازاس، ترجمة: سميرة عزمي الزين. ومحاكم التفتيش، غي تستاس-جان تستاس: ص ١٢٣-١٤٧، ومحاكم التفتيش، جيمس رستن: ص ٣٠٣-٣٥٠.



يقدم لنا الحب والسلام والعدل. نرجو أن تأخذوا كتابكم المقدس، وأن تعيدوه إلى مضطهدينا؛ لأنهم بحاجة إلى تعاليمه الخلقية أكثر مما نحتاج إليها نحن. فمنذ أن قدم كرستفر كلمبس فرض بالقوة ثقافة ولغة وديانة وقيم أوروبا على أمريكا اللاتينية^(١).

مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: ص ١٠١.

الخاتمة

وبعد:

فما تم ذكره عن ظاهرة التكفير عند اليهود والنصارى يفي بالمراد، والبحث فيه يطول، والمقام لا يتسع. وبنهاية هذا البحث يمكن ذكر أهم النتائج، وهي كما يلي:

- ١- أن الإنحراف في العقيدة، وتحريف الدين المنزل من الأسباب الرئيسة في ظاهرة التكفير عند أهل الكتاب.
- ٢- أن ظاهرة الغلو في التكفير عند أهل الكتاب مبنية على عقائد مدونة في كتبهم المحرفة.
- ٣- أن الغلو في التكفير له جذوره التاريخية والعقدية عند أهل الكتاب.
- ٤- أن الذي تبني التكفير عند اليهود والنصارى هم قياداتهم الدينية، والسياسية تبع لهم.
- ٥- أن الغلو في التكفير ليست ظاهرة عند أهل الكتاب فحسب، بل هي عقيدة يؤمنون بها، ويقاتلون من أجلها.
- ٦- أن الغلو في التكفير عند اليهود، والنصارى على وجه مخصوص دفعهم إلى سفك دماء مخالفيهم بقسوة ووحشية، ليس لها مثيل في التاريخ البشري.
- ٧- لم يسلم شعب في الغالب من جرائم الكنيسة ومحاكم التفتيش، حتى في أوروبا نفسها.

المصادر والمراجع

- أبرز ضحايا محاكم التفتيش، د.رمسيس عوض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٥م.
- أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، حققه وعلق عليه: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري، رمادي للنشر-المؤتمن للتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الإرهاب الغربي، روجيه غارودي، ترجمة: سلمان حرفوش، دار كنعان، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٧م.
- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، روجيه جارودي، ترجمة: محمد هشام، تقديم: الأستاذ: محمد حسنين هيكل، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- إسرائيل والتلمود، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، القاهرة: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- الأسطورة والحقيقة في التوراة، زنون كوسيدوفسكي، ترجمة: د.محمد مخلوف، الأهالي، دمشق، الطبعة الأولى: ١٩٩٦م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: د.عبدالله التركي، يوزع على نفقة صاحب السمو الملكي: نايف بن عبدالعزيز آل سعود، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- الإصلاح والتعديل لما وقع في اسم اليهود والنصارى من التبديل، للشيخ عبدالله بن زيد آل محمود (ضمن مجموعة رسائله)، العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة: ١٩٨٤م.
- إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي ﷺ، للإمام المهدي السموأل بن يحيى المغربي "الحبر شموائيل بن يهوذا بن أبوان"، تقديم وتحقيق وشرح: د.محمد

- عبدالله الشرقاوي، دار الهداية، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الإلياذة، هوميروس، ترجمة: سليمان البستاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: ٢٠٠٤م.
 - التاريخ الأسود للكنيسة، القس دي روزا، ترجمة من الألمانية: أسر حطبية، الدار المصرية للنشر والتوزيع قبرص، نيقوسيا، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
 - تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيومان، نقله إلى اللغة العربية: د.السيد الباز العريني، الطبعة الثالثة: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
 - تاريخ الحضارات العام، أندريه ايمار وآخرون، بإشراف موريس كروزيه، ترجمة: فريد م. داغر وآخرون، منشورات عويدات، بيروت-باريس، الطبعة الثالثة: ١٩٩٤م.
 - تاريخ الحملة إلى القدس، فوشيه الشارترى، ترجمة: د.زياد العسلي، دار الشروق، عمان، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م.
 - تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا الخضري، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى.
 - تاريخ الكنيسة القبطية، القس منسى يوحنا، مكتبة المحبة، القاهرة.
 - تاريخ الكنيسة، جون لوريمر، ترجمة: عزرا مرجان، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى.
 - تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري، ترجمة: القمص مرقص داود، مكتبة المحبة، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٩٧٩م.
 - تاريخ مسلمي الأندلس المورييسكيون حياة ومأساة أقلية، أنطونيو دومينغيز هورتز، وبرنارد بنثت، ترجمة: عبدالعال صالح طه، تقديم وتقيق: محمد محي الدين الأصفر، دار الإشراف، الدوحة، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
 - تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقدیس، ديوسف الكلام، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول: ٢٠٠٩م.
 - التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق: محمد عبدالرحمن

- المرعشلي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، الإصدار الثاني، الطبعة الرابعة: ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
 - التلمود: عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين حول الأخلاق الآداب الدين التقاليد القضاء، آ. كوهين، ترجمة: جاك مارتني، نقله إلى العربية: سليم طنوس، دار الخيال، بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.
 - التوراة كتاب مقدس أم جمع أساطير، ليو تاكسل، ترجمة: د.حسان ميخائيل إسحاق، الجندي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى: ١٩٩٤م.
 - الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليري، ترجمه وقدم له: أ.د.سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
 - جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، محمد بن أبي نصر الحميدي. تحقيق: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت. الطبعة تائانية: ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
 - الحسام الممدود في الرد على اليهود، عبدالحق الإسلامي المغربي (من أحبار اليهود بمدينة "سبتة" الذين من الله عليهم بالإسلام)، تحقيق وتعليق: د.عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
 - حضارة العرب، غوستاف لوبون، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه (دار إحياء الكتب العربية).
 - دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية، أ.د.سعود بن عبدالعزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
 - دراسة للصهيونية السياسية، روجيه جارودي، ترجمة: أ.د.مصطفى كامل فودة، دار الشروق، بيروت-القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
 - دلالة الحائرين، موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، عارضه بأصوله العربية والعبرية: د.حسين آتاي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

- الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، إسرائيل شاحك، قدم له: إدوارد سعيد، ترجمة: رضى سلمان، مراجعة: مريم بري، شركة المطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٩٩٧م.
- شتات أهل الأندلس، مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة: محمود فكري عبدالسميع، مراجعة وتقديم: جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م.
- شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، عبدالمك بن عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق وتعليق: د.أحمد حجازي السقا، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة: د.سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٢م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم، تحقيق: د.محمد إبراهيم نصر- د.عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- فضح التلمود، الأب: آي. بي. براناييس، إعداد زهدي الفاتح، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، د.حسن ظاظا، دار القلم- دمشق، ودار العلوم والثقافة- بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- فكر جارودي بين المادية والإسلام، عادل التل، دار البينة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- قاموس الكتاب المقدس، تأليف: نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، هيئة التحرير: بطرس عبد الملك وآخرون، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الحادية عشر: ١٩٩٧م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة: ١٩٧٣م.
- الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، الأب مايكل برير، ترجمة: أحمد

- الجمل- زياد المنى، دار قدمس، دمشق، الطبعة الثانية: ٢٠٠٣م.
- الكتاب المقدس: أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
- الكنز المرصود في فضائح التلمود، أوجست روهلنج، ترجمة: ديوسف حنا نصرالله، شرح وتعليق د.محمد عبدالله الشرقاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م. ونسخة أخرى: الكنز المرصود في قواعد التلمود، المترجم نفسه، قدم له: مصطفى أحمد الزرقا، والدكتور حسن ظاظا، دار القلم-دمشق، دار العلوم-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- كنيس في الكنيسة: العلاقات المسيحية اليهودية عبر التاريخ، ميشيل منير، دار جفرا للدراسات والنشر، دمشق-حمص، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.
- كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، د.أسد رستم، منشورات المكتبة البُولسية، لبنان: ١٩٨٨م.
- اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، يوسف زيدان، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة: ٢٠١٠م.
- الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، للدكتور: محمد علي البار، دار القلم، دمشق-الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبيها، د.عبدالرحمن علي الحجى، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- محاكم التفتيش والموريسكيون، مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة: خالد عباس، مراجعة وتقديم: جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.
- محاكم التفتيش وسقوط الأندلس واكتشاف كلومبس لأمريكا، جميس رستن، ترجمة: مجير ماجد العمري، دار السيد للنشر، الرياض، الطبعة الأولى: ٢٠٠٩م.

- محاكم التفتيش، غي تستاس- جان تستاس، ترجمة: د.ميساء السيوفي، مراجعة: د.جمال شحيد، المؤسسة العربية للتحديث الفكري- الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.
- محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، روجيه غارودي، ترجمة: حسين قبيسي، الهرست، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٨م.
- المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم د. محمد علي البار، دار القلم، دمشق-الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- مذابح وجرائم محاكم التفتيش، محمد علي قطب، لا توجد بيانات نشر.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، حقق بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د.محمد علي البار، الدار السعودية، جدة، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- المسيحية المتهودة في خدمة الصهيونية العالمية، عيسى اليازجي، الدار الوطنية الجديدة، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د.عبدالمعزم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- المسيحية والسيوف وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الأسباب رواية شاهد عيان، للمطران برتولومي دي لاس كازاس، ترجمة: سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- معجم الإيمان المسيحي، الأب: صبحي حموي اليسوعي، والأب جان كوربون، دار المشرق، بيروت، بالتعاون مع مجلس كنائس الشرق الأوسط، الطبعة الأولى: ١٩٩٤م.
- معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٩٧م.

- معجم لغة الفقهاء. وضع: أ.د. محمد رواس قلعجي، د. حامد صادق قنبيبي، دار النفائس بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق- والدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الموريسكيون الأندلسيون، مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم: جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م.
- الموسوعة العربية الميسرة، مجموعة من المختصين والأساتذة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية: ٢٠٠١م.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د.عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٩م.
- نضح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، محمد عبدالله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦.
- الهرطقة في الغرب، د.رمسيس عوض، سينا للنشر، القاهرة- الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.
- الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، تعريب جمال سالم، دار التنوير- دار الفارابي، بيروت: ٢٠٠٧م.
- همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق.
- اليهودية والغيرية، ألبيرتو دانزول، ترجمة: د.ماري شهرستان، الأوتل، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.